

مطبوعات القصر الملكي

التحفة السنية

لأحضرة الحسنية

بالمملكة الإصنيونية

لأبي القباس
أحمد بن محمد الكردودي

1383 - 1963

المطبعة الملكية - الرباط

التحفة السنية

للحضرة الحسينية

بالمملكة الإصنيولية

لأبي القباس
أحمد بن محمد الكردودي

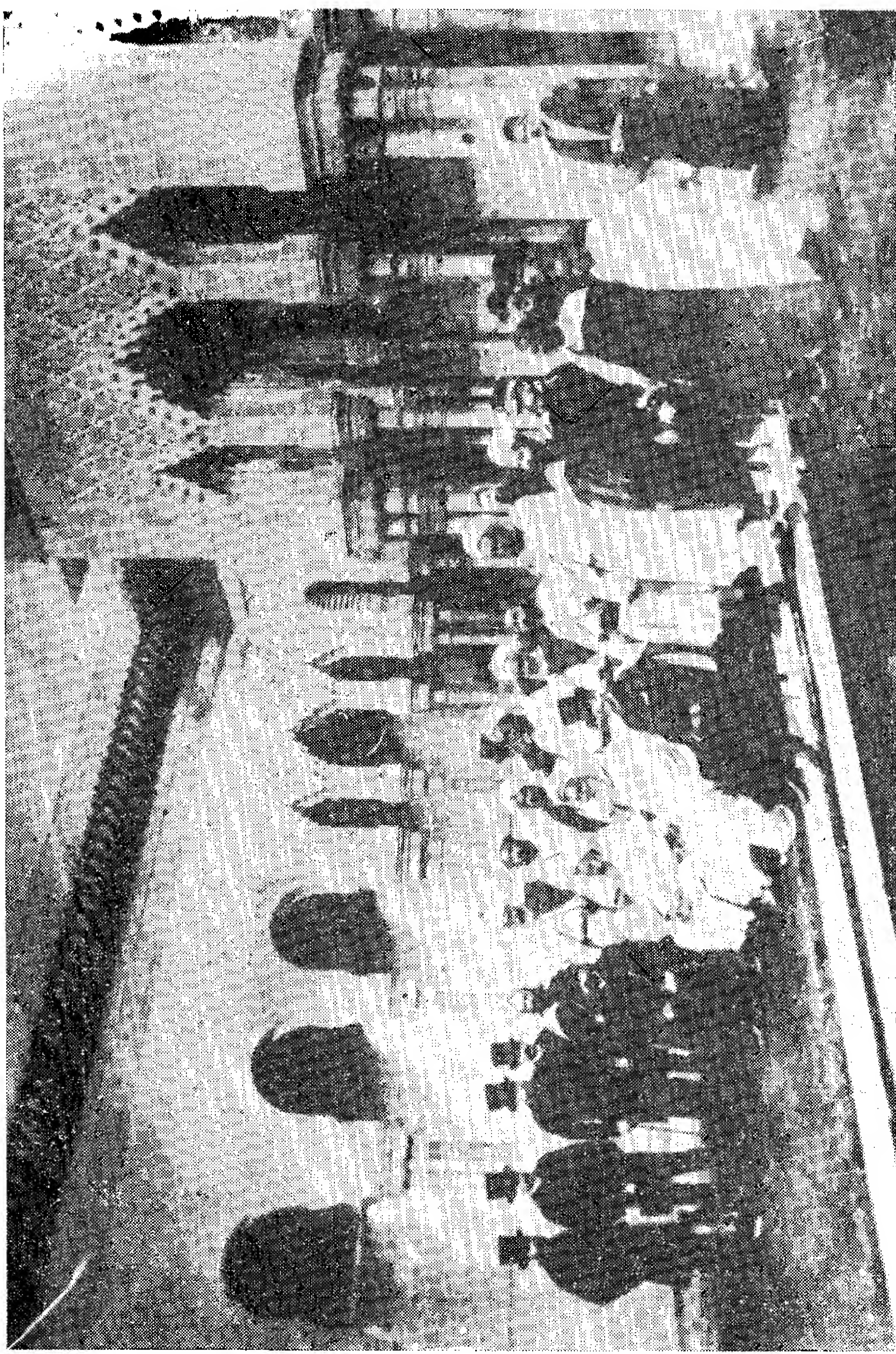
1383 - 1963

المطبعة الملكية - الرباط



مؤلف الكتاب

أحمد بن محمد بن عبد القادر الكردودي



أعضاء السفارة المغربية يتوسطهم السفير السيد عبد الصادق بن أحمد الريفي وعن يمينه
أهين سر السفارة السيد أحمد الكردودي مؤلف هذه الرحلة، وعن يساره سفير اسبانية بالمغرب.
وقد أخذت لهم هذه الصورة بصحن أحد قصور الحمراء بقرنططة .

انفق خسرته وغمار ذنبه التفسيره ورثته عيسى
 المسيح ورثته ليس المسيح ولا المسيح وارثه
 الرب فرجع بالروحانية وشفي ربح عود من الرب
 وراه البشارة فثقت مخلصه وارثه رثته مخلصه
 رثته مخلصه وارثه رثته مخلصه وارثه رثته
 من اول ما كانت مما ذه لا فاء ولا الحفاف
 فثقت من رثته وارثه رثته مخلصه وارثه رثته
 رثته رثته مخلصه رثته رثته رثته رثته
 المضره اللاه اخفقه علينا انفقوا الرب
 واشهد بنا حبل المهدية وانعم لنا فانه خير
 لغمار يسى ولا حزن ولا فورة لا بل الله الاعلى القاطع
 وهما الله على سترنا ومورنا محبة واليه وحده وسلم
 تسليما لكم اليوم الرب وربكم الرب رب العالمين
 انفقوا والحمد لله رب العالمين

تصدير

الرحلات - أى مشاهدات المسافرين المدونة فى الكتب - من المواضيع التى امتاز المغاربة بالكتابة فيها من قديم ، وتنقسم هذه الرحلات الى عدة أنواع، منها (الحجازى) الذى يعنى بوصف الطريق الى الحرمين الشريفين واداء مناسك الحج ، ومنها (السياحى) الذى يصف المسالك التى يمر بها ، والمدن والقرى التى تزار لغرض من الاغراض ، ومنها (العلمى) الذى يصف فيه المسافر تجواله لطلب العلم ورواية الحديث والشعر واللغة واستجازه كبار الشيوخ ، ومنها (السفارى) وهو الذى يصف فيه الكاتب قطعاً زاره مكلفاً بمأمورية دبلوماسية لدى ملكه أو رئيسه ، وقد انفرد المغاربة من بين المسلمين - فيما أعلم - بالكتابة فى هذا النوع الأخير وبرزوا فيه ، وأنشأوا فيه كتباً قيمة تدل - فى جملة ما يدل - على دقة وصفهم ، وشدة ملاحظتهم ، وقوة مهارتهم فى القيام بحق السفارة بين الملوك والرؤساء ، وتوثيق عرى المودة والتعامل بينهم، وايجاد الحلول للمشاكل التى تقوم بينهم أحياناً فتكدر صفو العلاقات التى تجمعهم ، ومن هذا النوع السفارى الرحلة المسماة **(التحفة السنية ، للحضرة الشريفة الحسنية ، بالملكة الاصبنيولية)** التى يأتى دورها اليوم لتنشر ضمن (مطبوعات القصر الملكى) .

مؤلف هذه الرحلة هو الفقيه الكاتب أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد القادر الكرودى الفاسى (1240 - 1318) أحد كتاب السلطان مولاي الحسن الأول وموضوعها كما يدل عليه اسمها وصف القطر الاسبانى ، وقد كان المؤلف ذهب اليه فى مهمة دبلوماسية ضمن سفارة أرسلها السلطان مولاي الحسن الى الملك ألفونسو الثانى عشر الذى لم يقدر له ان يجتمع بها ، لأن المنية اخترمته فى نفس اليوم الذى وصلت فيه السفارة الى مدريد .

وجرياً على العادة التى درج عليها مدونو هذه الرحلات من سفراء ووزراء وكتاب لم يحدثنا الكرودى عن الغرض الذى ذهبت السفارة من أجله الى اسبانيا ، فهذا الغرض كان يعد عندهم يومئذ من أسرار الدولة التى لا يجوز افشاؤها ، لأن العصر لم يكن عصر الدبلوماسية المكشوفة كما هو اليوم . ولا نستطيع فى الوقت الراهن التحويم فوق هذا الغرض ولا افتراضه ، فالقضايا بين المغرب واسبانيا كانت على الدوام قائمة بحكم الجوار وتداخل المصالح سواء اثناء العهد الاسلامى وما قبله ، أو فى العصور التى تلت غروب شمس الاسلام بالاندلس واحتلال الاسبانيين لبعض المواقع على الساحل المغربى ، وقد زادت هذه المشاكل استفحالا وتعقداً بعد هزيمة المغرب فى حرب تطوان، واشتراط اسبانيا عليه التنازل عن اجزاء من ترابه الوطنى واداء غرامة حربية يقطعها جباة اسبانيون من موارد جمركه ، على اننا موقنون بمعرفة هذا الغرض فى المستقبل بمراجعة الوثائق المحفوظة باسبانيا والمغرب والراجعة الى ذلك العهد .

وصف الكردودى فى رحلته ما شاهده اثناء زيارته لاسبانيا ذهابا وايابا ، وعننى على الخصوص بالشؤون الحربية فوصف الخيل والجند والثكنات والأبراج ومصانع السلاح ، ولسنا ندرى أهذا الاعتناء ينم عن المهمة التى كلفت بها السفارة فى أسبانيا أم ينم عن اهتمام موروث بشؤون الحرب والجهاد ؟ اذ ليس بخاف ان والده محمد هو أحد الذين رفعوا عقيرتهم بعد انهزام المغرب فى وقعة يسلى مطالبين بالاخذ بالاساليب الحديثة فى الحرب ، ونبذ الاساليب القديمة التى ان صلحت لحرب داحس والغبراء فهى لا تصلح لعصر الكهرباء والبخار ، وألف فى ذلك كتابه القيم المشهور **(كشف الغمة ، بيان ان حرب النظام حق على هذه الامة)** .

كما وصف المآثر الاسلامية متحسرا على صيرورتها الى الكفر ، والأماكن العامة من حدائق ومتاحف . مقارنة احيانا بينها وبين ما هو موجود بالمغرب ، ويلاحظ ان لهجته تنم عن حمية وتحمس لبلده وقومه ، حتى لا يوجد شئ فى الدنيا يعدل ما يوجد فى وطنه ، فعندما يتحدث عن حدائق اسبانيا يذكر أن (مطلق جنات المغرب أشها واحلا ، وأرفع محاسن وشكلا) ، وعندما يتحدث عن زيتونها يذكر أن (غالبه قصير جدا، وليست له فروع كثيرة ، فالشجرة الواحدة من زيتون مغربنا تعادل ستة أشجار أو ثمانية من زيتونهم) ، واذا تعرض للتنظيم الحربى لاسبانى - ومن غير شك أنه كان يومئذ ارفع بكثير من نظام المغرب الحربى - تساءل قائلا : (وأين ذلك من ترتيبنا العجيب،

الذى لا يزدريه الا خائن فى دينه مريب ؟ ، ومثل ذلك فعلة
عند ما قارن بين البروج والحصون باسبانيا ومثيلاتهما بالمغرب
وقد حررت الرحلة بأسلوب مسجع منمق ، لكن لا يبدو
فيه أثر للتكلف والاعتساف ، وجملها قصيرة ، يحس قارئها
برنة موسيقية .

وقد اعتمدنا فى طبعها على النسخة المحفوظة بالخزانة
السلطانية تحت عدد 463 وهى أصح من غيرها ، لانها هى
النسخة التى كتبها المؤلف بخطه الجميل وأهداها السلطان
مولاي الحسن ، ويبلغ عدد أوراقها 59 فى كل صفحة 14 سطراً .
وقد تفضل ابن حفيد المؤلف الفقيه السيد أحمد الكردودى
الكاتب بوزارة القصور الملكية بكتابة ترجمة المؤلف ، وأعارنا
بعض الصور والوثائق المفيدة المتعلقة بالرحلة أو حياة مؤلفها ،
أما التعاليق والملحقات فهى من عملنا المتواضع الذى نسهم به
فى خدمة ثقافتنا وبعث أمجادنا ، والذى نأمل أن يستفيد منه
الأدباء والعلماء والباحثون .

عبد الوهاب بن منصور

26 ذى الحجة 1382

21 مايو 1963

الرباط

ترجمة المؤلف



بقلم حفيده

الفقيه السيد احمد الكردودى

الكاتب بوزارة القصور الملكية

هو أحمد بن محمد بن عبد القادر الكردودى الكلالى من العائلة الكلالية الحسنية الشهيرة وبيد أفرادها رسوم ومستندات صادعة بانتمائهم للجناب النبوى الشريف وظهائر ملوك الدولة العلوية الشريفة من أول نشأتها الى الآن ، وأخرى لبعض ملوك الأشراف السعديين والكل ناطق بشرفهم الواضح وشفوف بيتهم وسمو مكانتهم وقد درج منهم رجال أفذاذ طبقوا المغرب ذكرا وشدوا له فى خدمة المخزن أزرا كان فيهم الكتاب الأبرار والأمناء الأخيار، والقضاة النزهاء والسفراء الكاتمو الأسرار، الذين خلفوا من ورائهم الذكر المعطار ، والمترجم هو آخر من قام منهم بهذه الوظيفة السامية الاخيرة وغيرها من المأموريات التى ستذكر بعد، وسلك فى الجميع ما يسلكه أمثاله الأمناء الذين ائتمنوا على

اسرار دولتهم والدفاع عن حقوق بلادهم ، ولخدماته الصادقة
كان السلطان الأفخم مولانا الحسن (I) قدس الله روحه يلحظه
دائما بعين الاعتبار وسلك مسلكه بعده ولده المولى عبد
العزيز (2) وبقي المترجم عزيز المكانة الى أن أجاب داعى الله .

مولده ونشأته :

ولد بفاس عام 1240 وتربى فى حجر والده الفقيه العلامة
المعقولى خاتمة المحققين وأمام المدققين الجامع لأشتات العلوم
ومالك أزمة الفهوم سيدى محمد (3) تحت كنف المروءة والصيانة

(I) السلطان مولاي الحسن الأول بن محمد بن عبد الرحمان بن هشام بن
محمد بن عبد الله بن اسماعيل الحسنى ، ولد عام 1247 وبويع بعد وفاة والده
عشية الخميس 18 رجب 1290 (II شتنبر 1873) وتوفى بدار ولد زيدوح من
بلاد تادلة ليلة الخميس 2 ذى الحجة 1311 (1894) وحمل جثمانه الى الرباط
فدفن بضريح جده السلطان سيدى محمد بن عبد الله بالقصر الملكى بالتواركة .
وكان من أحزم ملوك الدولة العلوية وأشدهم سعيًا فى تثبيت دعائم الأمن
وتنظيم الادارة وادخال أسباب الحضارة الحديثة ، كما كان ذا غيرة شديدة على
حرية بلده واستقلاله وعمل متواصل لحسم مادة المطامع الاجنبية التى كانت
تستهدف فى الأول الاستلاء على بعض أقاليمه النائية ثم احتلاله فى النهاية .

(2) السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن الأول ، ولد عام 1298 وبويع له
بعد وفاة والده فى 3 ذى الحجة عام 1311 وتنازل عن الملك لأخيه عبد الحفيظ
عام 1326 (1908) وكانت وفاته بطنجة يوم 8 جمادى الثانية عام 1362 (8
يوليوز 1943) ونقل جثمانه الى فاس فدفن بضريح جده السلطان مولاي عبد الله .

(3) محمد بن عبد القادر بن أحمد الكردودى الفاسى أحد أعيان علماء المغرب
فى القرن الماضى ، من مؤلفاته : (كشف الغمة ، ببيان ان حرب النظام حق على
هذه الامة) و (الدر المنضد الفاخر ، بما لأبناء مولانا على الشريف من المحاسن
والفاخر) وشرح لاصطلاح القاموس للهلالي ، وشرح لخطبة الالفية النخ توفى بفاس
عام 1268 .

والجد الذى هو سمة هذا البيت النبيل، الى أن نال فى المكاتب الابتدائية ما قدر له أن يناله ، ثم قصد كلية القرويين للارتواء من حياض علومها الدافقة فتربع فى حلق أساتذتها واغترف من معلوماتهم ما يغترفه شاب نهم يعرف قدر العلم ونتائجه الحسنة وكثيرهم الاشياخ الذين تلقى عنهم علومهم وهديهم وآدابهم ولكن ملازمته الكثيرة كانت لدروس والده وللفقيه سيدي محمد بن عبد الرحمن الحجرتي (4) وطبقتهما، وكان له ولوع بالتاريخ والأدب والانشاء والطب معتكفا عليه حتى أنه من كثرة انكبابه على التذكرة للشيخ داوود الأنطاكي قيد عليها حواشي كثيرة، وله خط رائق نسخ به عدة كتب ، ومروءة تامة وجد واقتصاد وسمت حسن ونباهة واقتدار فى الترسيل .

وظائفه :

كان عدلا موثقا بسماط عدول فاس ثم رقى للكتابة فى وزارة الشكايات بالاعتاب الشريفة مع الوزير الصفار (5) ثم نقل

(4) محمد بن عبد الرحمان الفيلالى الحجرتي شيخ الجماعة بفاس ومفتيها وحامل راية الفقه بها ، توفى عام 1275 .

(5) محمد بن عبد الله الصفار الاندلسي التطواني ، الفقيه المدرس العدل المفتي ، ورد على السلطان مولاى عبد الرحمان صحبة عشعاش عامل تطوان فندبه - بعد قبض العامل - لتعليم أولاده وحفدته ، فاستحسن طريقتة فى التعليم ورقى الى الكتابة بديوان السلطان ثم الى الصدارة ، ولما بويع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان أسند الصدارة الى الطيب بن اليمنى بوعشرين ، وعين الصفار وزيراً للشكايات (العدلية) ، ولم يزل فيها الى ان توفى بدار ولد زيدوح فى 9 ذى القعدة عام 1298 وحمل الى مراکش فدفن بقبة الصالح سيدي يوسف بن على خارج باب دكالة . وكان الوزير الصفار فاضلا نبيلاً عفيفاً ناصحاً للملك شفوفاً على الرعية .

للكتابه مع الحاجب موسى بن أحمد (6) مدة، وفي أثنائها عين في سفارة القائد المعطى بن عبد الكبير الشاوى (7) المزامزى لفرنسا بظهير شريف مؤرخ بـ 27 ذى القعدة عام 1306 (8) وحمله السلطان المقدس مولانا الحسن المراقبة على السفير لما كان لجلالته فيه من الصديق وبعد تمام المأمورية رجع أعضاء السفارة الى أوطانهم ، وعين أيضا مع النائب الطريس (9) مندوبا لسفارة البابا ليون الثالث عشر (10) بايطاليا ،

(6) أبو عمران موسى بن أحمد بن مبارك الحاجب الوزير ، استجبه السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمان ثم خصه بمباشرة أمور الولاية فكان بمثابة وزير داخلية ، ولما تولى الملك السلطان مولاي الحسن الأول استوزره فدعى بالوزير وبالحاجب ، واستمر على ذلك الى ان زوحم فى الوزارة كما زاحم هو فيها غيره فآثر ذلك فى نفسه وأصابه مرض مات منه عام 1296 ودفن بقبة مولاي على الشريف بمراكش . وكان الحاجب موسى هذا دينيا عفيفا أميننا منصفنا ، وهو والد الحاجب الوزير الداهية احمد بن موسى الشهير (أبا أحمد) (7) لم نعثر فيما بين أيدينا من وثائق على ترجمة مفصلة لحياة هذا السفير، وانما نجد أخباره متفرقة فى المراسلات السلطانية على عهد السلطان مولاي الحسن الأول . وهو من قواد البادية ووجهائها ومن غير طبقة الكتاب والادباء والرؤساء الحضريين . لذلك لم يفرد مترجمو رجال العصر العلوى الحديث بترجمة خاصة .

(8) انظر نص هذا الظهير فى الملحقات بآخر هذا الكتاب .

(9) الحاج محمد بن الحاج العربى الطريس التطوانى الاندلسى نائب السلطان بطنجة وأشهر دبلوماسيى المغرب فى بداية هذا القرن وأواخر القرن الذى قبله ، تقلب فى مختلف الوظائف الحكومية الى ان نقل الى طنجة للنيابة عن الوزير فى الشؤون الخارجية ، وترأس الوفد المغربى فى مؤتمر الجزيرة الخضراء ، وقام بالسفارة الى عدة أقطار أوربية ، توفى بتطوان ليلة 16 شعبان عام 1326 ودفن بزاوية سيدى محمد الحاج .

(10) جواشم بيكسى Joachim Picci ولد بكاربنيتو (ايطاليا) سنة 1810 وشغل منصب البابوية باسم ليون الثالث عشر ما بين 1878 - 1903 وكان فى صغره تلميذا ذكيا شديد الباس حلو المعشر ، واهتم اثناء توليه منصب البابوية بالشؤون الاجتماعية ، وكان له فى العالم تأثير قوى حتى اختاره المستشار الالماني الشهير بيسمارك حكما فى عدة قضايا دولية .

ووقعت الملاقاة معه في 19 جمادى الثانية عام 1305 الموافق 3 مارس سنة 1888 بقصد تهنئته ببلوغ فقاوته خمسين سنة وعقد أسباب المحبة معه ، (II) وعين في سفارة عبد الصادق بن أحمد الريفى (I2) لاسبانيا في 25 شعبان عام 1302 وصنف لى هذه الوجهة رحلته هذه التى سماها **(التحفة السنية ، للحضرة الشريفة الحسينية ، بالمملكة الاصبنيولية)** (I3) ، وقرضها له العلامة أبو العباس القاضى سيدى أحمد بن سودة (I4) بخط يده على ظهر أول ورقة من أصلها .

(I1) انظر عن سفارة الطريس الى البابا ليون الثالث عشر الملحقات بآخر هذا الكتاب .

(I2) أحد قواد السلطان مولاي الحسن ، يرد اسمه كثيراً فى الوثائق الراجعة الى العهد الحسنى ، ولم يخصه مؤرخو العصر العلوى الحديث بترجمة لأنه لم يكن من طبقة العلماء أو الادباء .

(I3) نص التقييد الذى رفعه المترجم للسلطان مولاي الحسن بواسطة حاجبه مستأذنا جنابه فى تقييد رحلته هذه ، وهو محفوظ بخزانة ولد حفيد المؤلف :

الحمد لله وحده

أخانا وحاجب مولانا الاعز الاسعد سيدى أحمد ابن موسى بن أحمد سلام على سيادتك ورحمة الله عن خير سيدنا نصره الله ، وبعد ، فقد شرعنا فى تقييد رحلة اقتداء بمن تقدم من سفراء ملوك الاسلام ولم ندر هل يوافق الغرض الشريف تقييدها وما أول كراسة قيدناها تصلك فنحبك أن تطالع به مولانا أعزه الله وما اقتضاه نظره العالى بالله فى أمرها نعمل بمقتضاه وعلى الاخوة والسلام .
الامضاء : الكردودى لطف الله به .

فوقع جلالة السلطان على التقييد بخط يده الشريفة بما نصه :
أصاب أصاب فيه فليكمل عمله

(I4) أبو العباس أحمد بن الطالب بن سودة المرى الفاسى قاضى الجماعة بمكناس وشيخ المحدثين بالمجلس السلطانى ، توفى بفاس صباح الجمعة 10 رجب عام 1321 ودفن بالزاوية الشراعية الكائنة بدرب الدروج عن يمين المحراب .

ونص التقرير : الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على

سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه من بعده .

وبعد لما وقفت على ما نفثه يراع الاخ الأعز الحبيب الفقيه
الكاتب الشريف الامجد الحسيب أبى العباس سيدى أحمد ابن
شيخنا وسيدنا وقدوتنا خاتمة المحققين وامام المدققين الجامع
لأشتات العلوم ومالك أزمة الفهوم الشريف الامجد الخير البركة
الاسعد سيدى محمد الكردودى الحسنى فى وجهته لقضاء الغرض
المولوى بثغر الاندلس ، ردها الله دار اسلام بجاه من له الجاه
العظيم الانفس ، الفيته مجموعا دل على كمال فضل جامعته وتوقد
قريحته وحسن ذكائه ونباهته وكيف لا والدر من معدنه الأكرم
وقدماً قيل : ومن يشابه أباه فما ظلم ، فالله يحفظه برعايته
ويحوطه بعنايته ويديم شرف مجادته ويشيبه على حسن طويته
آمين . وكتبه عن عجل معترفا بقصوره وتقصيره فى عاشر شوال
عام 1307 سبعة بعد ثلاث عشرة مئة امضاء : أحمد بن الطالب
ابن سودة الله وليه ومولاه .

وسافر أيضا فى قضية الشنآن الواقع بين شرفاء أهل
وزان عام 1301 ثم عين رئيس اللجنة المؤلفة لتصفح الديون
بطنجة . ولما جرت المذاكرة مع السلطان فى شأن الامور
الخارجية عينه كاتباً أولاً بوزارة الخارجية مع الوزير المكلف
بها اثر السفارة لاياليا . وبعد وفاة السلطان مولاي الحسن

قدس الله روحه رجع كاتباً لديوان الصدارة. ثم توجه لآسفى (I5) لتصفح ديون المخزن . وبعده للحادثة الواقعة بمدينة الرباط فطمّن الافكار وأزال سوء التفاهم بين المخزن وفرنسا وآخر القاضى السيد محمد بن عبد الرحمن البريبرى (I6) وعين مكانه الفقيه السيد على دينيه (I7). ومنها للحادث الهائل الواقع مع شرفاء أهل وزان وبني مستارة . وبعد انتهاء هذه المأمورية طلب من المخزن اعفاء رعيًا لكبر سنه فساعده السلطان المولى عبد العزيز بواسطة الوزير أبى العباس أحمد بن موسى (I8)، وألزمه توجيه أكبر أولاده بدلا عنه فامتثل ووجه ولده الفقيه سيدى محمد الذى قام بعده بعدة مأموريات مهمة فى مصلحة المخزن ليس هذا محل ذكرها وذلك بعد ما أناله السلطان المقدس المولى عبد العزيز عطايا جزيلة وتحفا رفيعة ، دلت على قدر مكانته عنده ، وما كان

-
- (I5) أنظر نص الظهير الذى توجه به المترجم لآسفى بالملحقات آخر الكتاب.
- (I6) القاضى محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن التهامى البريبرى السلوى ، ثم الرباطى ، من علماء الرباط ونحاتها المشهورين ، تصدى للتدريس ببلده ، وولى خطة قضائه ، وكانت وفاته ليلة الأحد 13 جمادى الأولى عام 1326 ودفن من الغد بالزاوية الحنصالية . له فهرسة سماها (اتحاف ودود ، بمقصد محمود) .
- (I7) أبو الحسن على بن أحمد دينية الاندلسى الرباطى علامة مشارك ، خطيب مفتى ، درس على أشيخ الرباط ، ولما أكمل دراسته انتصب للتدريس ببلده ، وكان له ولوع كبير بالنساخت ، وتوجه لاسبانيا ضمن سفارة القائد عبد السلام السوسى عامل الرباط . له مؤلفات عديدة منها شرحه على الهمزية ، وختمه للخلاصة ، ورحلة أندلسية .
- توفى ليلة الاثنين 15 حجة عام 1325 ودفن فى الغد بالزاوية الدرقاوية بالرباط .

(I8) أحمد بن موسى بن أحمد بن مبارك السوسى حاجب السلطان مولاي الحسن وصدر الوزارة على عهد السلطان مولاي عبد العزيز ، توفى بمراكش فى محرم 1318 ودفن بضريح مولاي على الشريف .

يتمتع به من عطف وتقدير لديه والتفات نحوه ، شأن الملوك
العظام الذين يراعون لخدامهم جليل الاعمال والخدمات

أولاده :

خلف رحمه الله فروعا زكية أكبرهم وأعلمهم وأنبغهم الفقيه
الاديب الكاتب البارع سيدي محمد (19) الذي قضى جل حياته في
خدمة المخزن الشريف بصفته كاتباً ثم عضواً في عدة سفارات
الى أن طلب الاحالة على المعاش كوالده ، فقبل طلبه بعدما أنعم
عليه السلطان المولى يوسف (20) بالوسام العلوي الشريف
من درجة (ضابط) والاديب البارع الكاتب المطلع الخبير
سيدي الحاج العباس (21) الذي نشأ في المخزن كذلك ، وتقلب في
عدة وظائف ، وآخر وظيفة توفى عليها خلافة وزير العدل في
عهد الجلالة المحمدية المنيفة أبد الله فخرها وخلد عزها وأدام
ملكها (22) التي ترعى دائماً سوابق خدام أسلافها الكرام ،
قدس الله أرواحهم في دار السلام آمين .

(19) توفى بفاس في 25 ربيع الاول عام 1335 ودفن بروضة سيدي
الغيثي بالقبب .

(20) السلطان مولاى يوسف بن الحسن الاول نودى به ملكاً على المغرب في
أول رمضان عام 1330 بعد تنازل أخيه السلطان مولاى عبد الحفيظ وكان خليفة
له بفاس ، وتوفى بفاس يوم الخميس 22 جمادى الاولى عام 1346 (17 نونبر
1927) ودفن بضريح جده السلطان مولاى عبد الله .

(21) ولد بفاس عام 1297 وتوفى بالرباط يوم الثلاثاء 22 محرم عام 1352
ودفن بزاوية مولاى المكي جوار قبر الشيخ أبى شعيب الدكالى .

(22) كتبت هذه الترجمة في حياة الملك محمد الخامس ، وكانت وفاته
رحمه الله بالرباط في الساعة الثالثة والنصف من عشية الاحد 10 رمضان (26
يبرابر 1961) ودفن عشية الثلاثاء بعده بضريح جده السلطان مولاى الحسن الاول

وفاته :

لما رجع لفاس بعد مساعدته على التقاعد مكث بها نحو ثلاثة أشهر فاخترمته المنية عشية يوم الثلاثاء منتصف شهر الله الحرام فاتح عام 1318 ودفن يوم الاربعاء بعد الصلاة عليه بالضريح الادريسي الأنور بزاوية سيدي محمد بن الفقيه (23) في جوار سيدي عبد الله بن يخلف (24) تلميذ الولي المذكور، ومؤلف مناقبه ، رحمه الله رحمة واسعة ، وألقنابه مسلمين موحدين آمين .

(23) محمد المدعو ابن الفقيه بن محمد بن محمد بن عيسى عالم أصولي صوفي جار على مذهب أهل السنة . توفي بعد زوال يوم الاثنين 7 ربيع الاول عام 1136 (ظ ترجمته في سلوة الانفاس (1 : 292 - 297) .

(24) عبد الله بن محمد المدعو بن يخلف الانصاري الاندلسي الفاسي ، كان اماماً في فن القراءات أخذها عن الاستاذ الكبير ادريس بن محمد المنجرة ، كما أخذ التصوف عن سيدي محمد بن الفقيه المتقدم . وله فيه تأليف سماه (سلوة المحبين والمريدين ، ونكاية الحاسدين والجاهدين ، في مناقب سيدي محمد بن الفقيه أحد الافراد العارفين) .

توفي في 27 ذي القعدة عام 1162 ودفن بزاوية شيخه المذكور .

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

حمدا لمن اختار آل البيت المحمدي للخلافة بالمغرب وذل
لعزتهم العظيمة كل أعجمي ومعرب، فصاروا للملوك تاجا فوق
المفارق . يعترف بعظيم قدرهم ملوك المغارب والمشارق .
وبنور حلاهم المشرق يفتخر المغرب على المشرق . وشكرا له
سبحانه على ما وهب من أسباب النجاح والظفر ، واستعملنا فيما
يرضيه من محمود السفر ، وسيرنا في البر والبحر ، وألهمنا ما
هو قذى في أعين الكفار وسهم في النحر ، والصلاة والسلام
على سيدنا محمد صفوة النبوة ومختارها . ولباب مجدها السامي
ونجارها . الذي أرسله الله رسولا بالهدى ودين الحق . وخصه
من بين سائر الرسل بالرسالة العامة لجميع الخلق . وعلى آله
وأصحابه الهداة المهتدين ، الباذلين جهدهم في نصره الدين ،
ونستوهب من المولى جلت أسماؤه . وتعاضمت نعمائه وآلاؤه .

أن يديم النصر والتمكين ، والعز والظفر والفتح المبين ، لهذه
الحضرة الشريفة . العلوية المنيفة . المتوفرة دواعى مجدها
المشرقة كواكب سعدتها .

حضرة عظمت جلالا وفخرا
وعلا قدرها ثناء وذكرها

حضرة تفزع الملوك اليها
من جميع الوجوه برا وبحرا

كيف لا وهى حضرة ابن رسول الله
له من قد حوى المحامد طرا

زادها الله رفعة وظهورا
وحباها المدى اعتزازا ونصرا

وبعد ، فلما وقع التغلب من أعداء الدين على بعض بلاد
المسلمين ، كتونس ومصر . واشتدت شوكتهم فى هذا العصر .

وصاروا يجعلون لما يرومونه أسبابا يرتكبونها ،
وأورا يريدونها ويدبرونها ، تعيين على من جاورهم

من أهل الاسلام ، أن يكونوا من أمرهم على بال ،
وأن لا يرتكبوا ما يؤذن بالتوانى والانحلال ، بل يسارعون الى

مزيد الأهبة والاستعداد . بما يجمع الكفرة ويؤمن البلاد . وأن
يحتاطوا أتم احتياط لدينهم وبلادهم ، ويعاملوا من جاورهم

معاملة غير موصلة لمآدهم ، ريثما يتضاعف الاستعداد
وتتكرر الأهبة ، ويهب ريح النصر مهبه ، وكان من النعم العظيمة ،

والمنن الجسيمة ، ما من الله به وأنعم على أهل هذا الصقع المغربى
لطفًا من الله بهم . وجعل بيده زمامهم وملكه عليهم . بضعة

الرسول وخليفته . ومن خص دون غيره من الملوك بالخلافة
النبوية ووجبت امامته ، قرشى الأئمة ، وتاج ملوك الأمة ، الجامع

من شرف العلم والنسب بين التالد والطارف ، الوارث
أسرار الملك المحلى بالمحامد والمعارف ، من تحلت بشنائه الأفواه ،
وبلغ من كل وصف جميل منتهاه ، وجبلت على حبه القلوب ،
فمدت أكف الدعاء لعلام الغيوب ، أن يديم له النصر والتأييد ، والعز
والظفر على الدوام والتأييد ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ناصر
الملة والدين أبو علي مولانا الحسن ، ابن أمير المؤمنين ، المجاهد
فى سبيل رب العالمين ، مطهر الحنيفية السمحاء من رجس
المشركين ، ومنقذ الامة من استيلاء المتمردين ، السلطان الذى
ماثره تتلى وتحمد ، مولانا أبى عبد الله سيدى محمد (25) ، ابن
مولانا السلطان الذى حسنت فى الملك سيره ، وتعاضد فى
الفضل خبره وخبره ، المعظم القدر والشأن ، مولانا
عبد الرحمن (26) ، ابن سيدنا الملك الهمام ، البطل
المقدام ، وارث الخلافة عن آبائه الكرام ، الذى
شمر عن ساعد الجد فأورث المفاز الجسام ، سيدنا ومولانا
هشام (27) ابن ساداتنا الملوك الذين شيد الله بدولتهم العلية

(25) أمير المؤمنين السلطان محمد الرابع بن عبد الرحمان بن هشام
استخلفه والده على حداثة سنه عام 1255 وولاه قيادة الجيش الذى حارب فرنسا
بوادى يسلى قرب وجدة عام 1260 وبويع له بالملك بعد وفاة والده يوم الاثنين
29 محرم عام 1276 (28 غشت 1859) وتوفى بمراكش بعد زوال يوم الخميس
18 رجب عام 1290 (1873) ودفن بضريح جده المولى على الشريف بمراكش .

(26) أمير المؤمنين عبد الرحمان بن هشام بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل
العلوى ، ولد عام 1204 وبويع له بفاس بعهد من عمه المولى سليمان فى 16
ربيع الاول عام 1238 (11 دجنبر 1822) وتوفى بمكناس يوم الاثنين 29 محرم
عام 1276 (28 غشت 1859) ودفن بضريح جده المولى اسماعيل .

(27) هشام بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل ، بويع فى مراكش والحوز
لما انحرفت قبائله عن السلطان المولى اليزيد وعلى يديه كانت وفاة اخيه اليزيد
متأثراً بجروح اصابته فى احدى معاركه معه أواخر جمادى الثانية سنة 1206
ولم تنزل احواله فى اضطراب الى ان اضطر للدخول فى طاعة أخيه المولى سليمان
فأمنه وعفا عنه وأسكنه الرباط بطلبه ، ثم عاد الى مراكش وفيها كانت منيته .

العلوية معالم الاسلام ، وبماثرهم السنية الحسنية أشرفت
شمس المغرب بعد الاظلام .

معشر أصبحت فضائلهم في الـ أرض تتلى بالسن الحسان
ألبسوا للأمانى أثواب عز وأذلوا أعناق أهل العناد
فأحيا الله بسيدنا المؤيد معالم الدين بعد اندراسها ، وكان
نصره الله هو المجدد بعد الثلاث عشرة مئة لتشبيدها والمؤسس
لأساسها .

ملك تقر له الملوك بأنه انسان أعينها وعين حياتها
يبدى ابتساما للعداة ورأيه رأى ينكس في الوغا راياتها
نهض مستعينا بالله بما قعدت همم الملوك عن ثقله ، وضعف
الدهر عن معاناة مثله ، بمحاسن حسنية ، وعزائم علوية ، فرد
الدين جديدا ، وذميم الايام حميدا ، بترتيب أوضحه ، وخلل
أصلحه ، وسياسة ابتكرها ، وماثر حميدة أبدأها ونشرها ،
فكم قارع الاعداء ، وعالج من داء ، لا زال سيف عدله للبغى
قاطعا ، ولا عداء الدين قامعا .

ولما كان بين هذه الدولة الشريفة ، العلوية المنيفة ، وبين من
جاورها من دول النصارى شروط محصورة ، وعقود مقرررة غير
محظورة ، وكان من عادة أسلاف سيدنا الأكرمين ، ومن تقدمهم
من أئمة المسلمين ، أن يوجهوا فى كل دهر سفراء لتجديدها ،
ورفء ما انتلم من قواعدها ، عين أيده الله سفراء لمن جاوره من
الدول ، وحملهم من أغراضه الشريفة وآرائه السديدة ، ما يعود
نفعه على الاخير من اياتته والاول ، وكان من جملة من عين منهم

لدولة الصبنيول، المفوض اليه (28) فيما حمله من المقول، خديم شريف عتبتة، المنتظم في سلك عقد كتبتة، المخلص في جانبه الشريف محبته ، الباذل فيما يرضيه جهده ونصيحته ، المعترف بما عليه من عظيم آلائه ، الشاكر لما أسداه اليه من نعمائه ، أحمد بن محمد بن عبد القادر الكردودي مقيد هذا التقييد ، ومنظم سلك عقده الفريد ، المفصح فيه عما سمعه في هذه الوجهة أو رآه ، مما استحسن سماعه أو مرآه ، وعما لهذه الدولة الشريفة عندهم من عظيم الذكر وعلو الجاه ، خصوصا سيدنا المنصور بالله . فان لهم في جانبه الشريف، من المحبة والتعظيم والتشريف ، ما يستحسن ويستعذب، ويتعجب منه ويستغرب، أبقاه الله والنصر العزيز يحف بركابه ، وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه ، والقلوب مجبولة على حبه معظمة لعل جنابه ، وخلص نصره وأعز أمره ، وأبد مجده وفخره ، وأدام في المعالي ذكره .

ولما تفتحت أزهار روضه الزاهر ، وتم انتظام لآلى عقده

الباهر ، سميته :

التحفة السنية ، للحضرة الشريفة الحسنية

بالمملكة الاصبنيولية

(28) توهم هذه العبارة ان الكردودي مؤلف هذه الرحلة ذهب على رأس السفارة ، والحقيقة انه كان كاتبها فقط ، أما السفير الحقيقي فهو السيد عبد الصادق بن أحمد الريفى ، وقد أغفل المؤلف ذكره كما أغفل ذكر باقى أعضاء السفارة .

ومن الله أسأل أن يعيدها دار سلام، بجاء النبي عليه الصلاة والسلام .

ولنشرع في تقييد ما أُمليته ، وتحبير ما سمعته أو رأيته،
فنقول ، ومن الله أستمد العون في المقول :

السفر :

سافرت من الحضرة الشريفة العلية العلوية المنيفة ، في
الخامس والعشرين من شعبان من سنة اثنين وثلاث عشرة مئة
(1302) بعدما شاهدت محيا سيدنا الامام، من بنور مشكاته يستضاء
في السفر والمقام ، وقد حملني حقق الله آماله ، وأنفذ في مصالح
المسلمين أقواله وأفعاله ، من غوامض أسرارهِ المفيدة ، وآرائهِ
السديدة ، ما يتحمله السفير ، مما يفضي الى تسهيل كل صعب
ويقضي بتيسير كل عسير ، ولما آن وقت السفر ، ونحن نتوقع
بحول الله بلوغ المنى والظفر ، وأردنا مفارقة الاهل والأولاد ،
وأهل المحبة والوداد .

مددت الى التوديع كفا ضعيفة
وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي
وقلت ودمعي واكف لفراقهم
وقلبي خفوق موقن بسهادي
فلا كان هذا آخر العهد منكم
ولا كان ذا التوديع آخر زادي

وأنشدت قول القائل ، ونار الفراق تشب بين الضلوع ،
وللمرء فى وطنه محبة وولوع :

السم من ألسن الافاعى
أعذب من قبلة الوداع
ودعتهم والدموع تجرى
لما دعا للوداع داعى

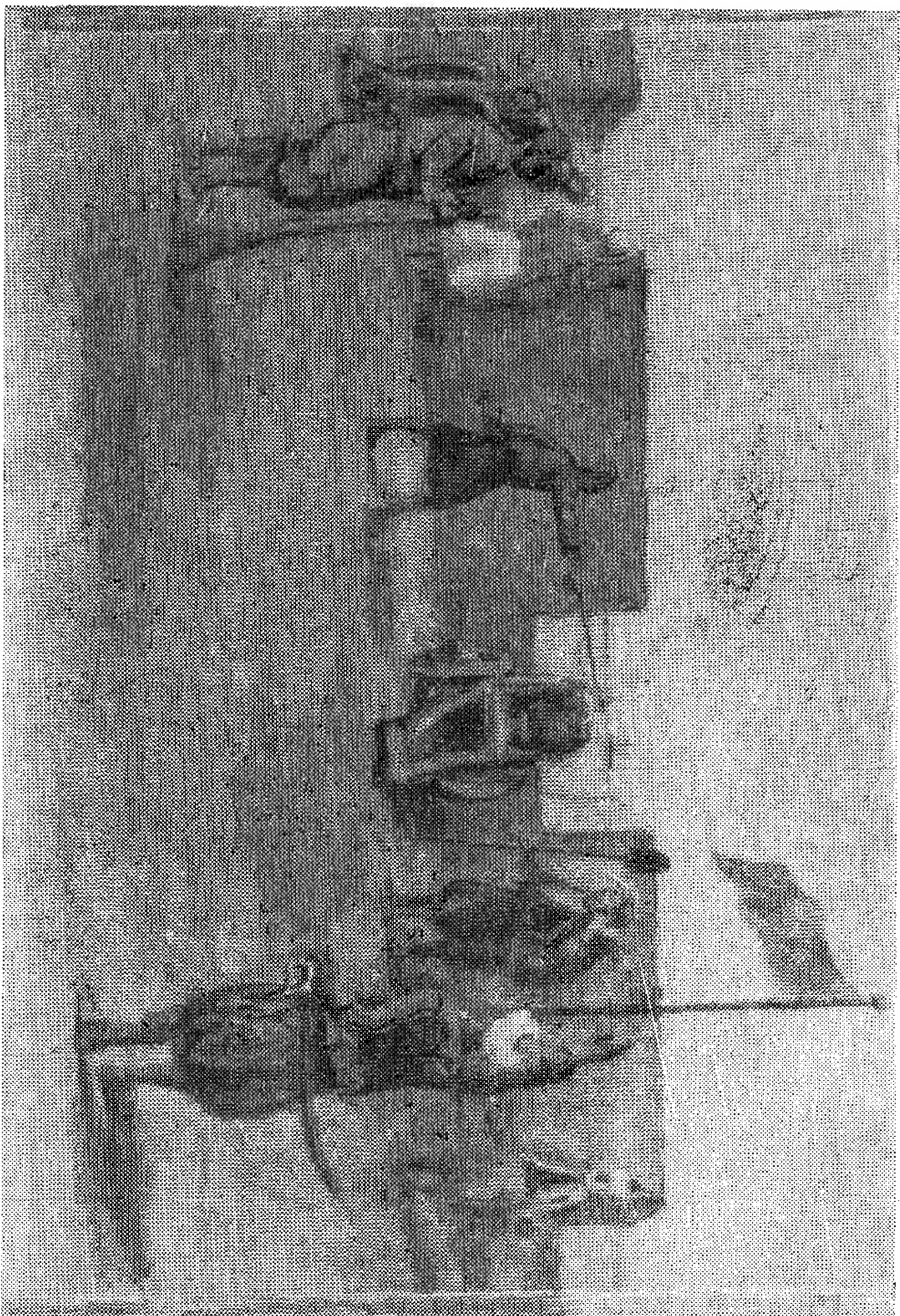
وقول آخر مقتفياً أثره، حيث عبر عما أكنه الضمير وستره :
ودعتكم وثنائى لا يودعكم
وسرت عنكم وبقيا الحب ما برحت

أشدو بمدحكم حبا ولى محس
لو أن أيسرها بالورق ما صدحت
لئن نأت عنكم يوما جوانحنا
فان أرواحنا لربكم جنحت

وانست القلب بقول بعض شعراء اليتيمة ، وجعلته له
كالتميمة :

إذا دعاك الوداع فاصبر
ولا يروعنك البعد
وانتظر العود عن قريب
فان قلب الوداع عادو

ثم سرنا وللقلب خفوق ، وان قوبل بما يستحسن ويروق
ولكنه لفرط ولوعه بالاماكن السنية والاعتاب الشريفة الحسنية



صورة قديمة تمثل جنود المدفعية المغربية (الطليجية) بـ برج ساحلي يتبادلون
التحيات مع إحدى السفن الحربية الأجنبية عند اقترابها من المرسى .

لا يبغي بها بديلا ، ولا يرضى تعريسا فى سواها ولا مقيلا ، اولا
أن الامتثال واجب ، والسعى فيما يرضى الله من أسنى الرغائب ،
وقد شاهدنا من أسرار عناية الله بنا، التيسير فى سفرنا ببركة
دعاء سيدنا ، أبد الله سعده ، وخلد فى الصالحات ذكره ومجده .

الوصول لطنجة ووصف تحصيناتها :

ولما حللنا بثغر طنجة، وجدناه ذا محاسن وبهجة ، تنشرح
به الصدور ، ويحمد فيه الورود والصدور ، ويستحسن مرآه
الناظر اليه وتنبسط نفس القادم عليه ، لما حواه من عظيم الآثار،
وما اشتمل عليه من فسيح الديار ، وازدهى بما جدد مولاتنا
الامام ، حامى بيضة الاسلام من آلات الاستعداد، والاهبة للجهاد،
فقد جدد أيده الله فيه ثلاثة أبراج على هيئة جديدة وكيفية متفنة
العمل مفيدة ، تغنى عن سواها وتخشى العدا عظيم بلواها ، لكل
برج منها سوران فى مقابلة البحر فى غاية الاتقان والاتساع ،
وبينهما سبع عشرة خطوة مملوءة ترابا بحيث اذا ضرب البرج
بالكور لا يؤثر فيه ، وان أثر وسقط البعض من السور يوجد
التراب حائل بينه وبين السور الثانى فلا يصل اليه الكور
الا بعد سقوط ذلك التراب مع أن هذا التراب كقطعة جبل لا يعمل
فيه الكور، وجلب نصره الله وأعانه لهذه الابراج العظيمة المنافع،
سته من المدافع ، هائلة المنظر عظيمة الجرم ، لمقابلة الاعداء
وللدفاع والاخذ بالحزم ، لكل برج منها مدفعان عظيمان ، زنة
كل مدفع منها عشرون طنا ، والطن هو عشرون قنطارا فوزنه

إذاً أربعمئة قنطار، وفورمته (29) مئة وعشرون، وبباطن هذه المدافع
شرطات ، وعمارة كل واحد منها عمارة متوسطة ، قنطار واحد
من البارود فأكثر، ووزن كورته (30) ثلاثة قناطير وستون رطلا،
وليست كعمل الكور القديم بل هى مستطيلة كهياة قالب السكر،
غير أنها أعظم منه جرماً بكثير ومع عظمتها بسبب تلك الشرطات
التى بباطن المدفع تقطع مسافة قدرها ستة آلاف يرضه (31)
وستمئة وعشرون يرضه، وهى نحو أربعة أميال، وما أصيب بها
مركب الا تصدع، وان كان ظاهره مغشى بالحديد على ما هى عليه الآن
المراكب الحربية ، ويستغنى بالواحد من هذه المدافع عن العدد
الكثير من غيرها من العمل القديم ، لأنها توجه لاي وجهة يراد
أن تستقبلها أماما ويمينا وشمالا بالآت محمولة عليها من غير
مشقة ولا تعب، وترفع الكرة لفم هذا المدفع بالآلة بطرف سريره،
وعند مقابلتها له تدرج فيه مادام ممكنا ذلك، فان منع مانع استدير
المدفع بالآلة دورانه وارتفع مؤخره بالآلة أيضا، فيصير فمه
منحنيا محاذيا ومقابلا آلة موضوعة الى جانبه ، وقد جعل فيها
البارود والكرة واستخدمت تلك الآلة ، فتدفع ذلك البارود
وتلك الكرة لباطن المدفع ، ثم تستخدم آلة المدفع فيرتفع فمه ،

(29) شكله ، جرمه ، عياره ، والكلمة اسبانية Forma

(30) أى كورته ، ويطلقها المغاربة على كل شىء مكور ، ومنه قذيفة المدفع
التى كانت فيما سلف مكورة ، ويستعملون فى هذا المعنى أيضاً كلمة بومبة
Bomba الاسبانية .

(31) أى ياردة وتعادل 91 سنتمترا والكلمة انجليزية Yard

ويوجه للمحل المراد ، ويجعل فى ثقب بمؤخره قدر القلم من
(اسبيريتو) (32) المتصل بخيط فيجذب بقوة وسرعة فتخرج
عمارته (33) ، ويستخدم المدفع الواحد بآلته خمسة عشر رجلا
مع عظمه .

وجلب أيده الله ونصره من اقامة هذه المدافع عددا معتبرا
من الكور ، على الوصف المذكور ، مجوفا يجعل بداخله البارود
وحيثما وقع ، تفرقع ، وغير مجوف ، ورأس الجميع محدد ومن
البارود المصنوع لها كقطع الفحم ، كل عمارة على حدتها بداخل
وعائها وبه توضع فى المدفع .

ومن عظيم اعتناء سيدنا أيده الله بالامور الجهاديه
أن جلب لبناء هولاء الأبراج عدة من المهندسين من
بعض أجناس النصارى بأجرة وافرة ، وجلب لها من اقامة البناء
والبرصلانة (34) التى يصير البناء بها كقطعة حجر ، ولا
تؤثر فيه العوامل ، ولا ينقض بعمل عامل ، وغيرها مما صير (35)
فيه مال ، له بال ، من عدد آلاف الريال ، وأدام البناء فيها عدة
أعوام مع عظم ما يصير فى الاقامة (36) والاجراء والعمله كل

(32) مادة مائعة ملتهبة (الكحول) والكلمة اسبانية .

(33) ما يعمر به جوف المدفع أو البندقية مرة واحدة .

(34) طحين الحجر يخلط مبلولا بالحصا ويبنى به ، فيصير بعد يبسه
كقطعة من الحجر صلبة . وهو ما يعرف فى الشرق بالخرصانة . والبرصلانة لفظ
اسبانى .

(35) أنفق .

(36) ما يقام به البناء وغيره ، ويعرف ايضا بالعمل .

يوم ، كل ذلك اعتناء منه أيده الله بأمور الجهاد
واهتماماً بشأنه ، حقق الله رجاءه ، وأثابه من عظيم
شأنه بما شاءه ، وجزاه بما جرى به الخلفاء المهتدين والأئمة
الراشدين ، على القيام بأمور الدين ، والاهتمام بمصالح المسلمين
ومع ذلك فإنه أيده الله ونصره كان يوجه من يتعاهد ذلك البناء
ويعلمه نصره الله بما هو عليه من اتقان أو عدمه ، ومن أعمال الجد
فى الخدمة أو التراخى فيها ، ولما تبين له أن أحد المهندسين من
النصارى ارتكب التراخى فى خدمته لتطول المدة ، ويستفيد من
ذلك ما لا يحصل لأحد بعده ، وجه أدام الله فى الصالحات وجهته ،
من عملة أرضنا ، ومعلمى قطرنا ، من أخلصوا لله فى عملهم ،
وعلموا أن المولى جل علاه مثيرهم ومطلع عليهم ، وقد يظن بهم
عدم المعرفة ، فصاروا بعد أن كانوا نكرة معرفة ، وأجادوا وأتقنوا ،
وجاءوا بما لم يات به من قبلهم وأحسنوا ، حتى أن النصارى
حيث شاهدوا عملهم استغربوا صدور ذلك منهم واستحسنوه
وسلموه لهم ، وقد فاق علمهم عمل النصارى بشدة الاتقان ،
وتجديد المخازن والابواب وعمل نظفيه (37) لجمع ماء المطر ، اذ قد
يتوقف عليه عملهم وغير ذلك مما تدعو الحاجة اليه ، كل ذلك
فى مدة يسيرة لو وكل الامر فيها للمهندسين النصارى لما كمل
فى أضعافها ، وضوعف الصائر عليها أضعافاً مضاعفة .

(37) سرداب أو حوض يجمع فيه ماء المطر ، وينطق بها أيضاً مطفية .

ومما كملت به بهجة هذا البرج الأخير ، الجامع
لكل وصف وخير ، اتقان بابه الموالى للشارع ،
الذى هو عنوان الباطن والدليل عليه عمله البارع ،
بجعل جانبيه من حجارة منحوتة كالمرمر فى بياضها وصقالتها ،
وما ارتفع منه نصف دائرة كذلك يشهد رأيها أن صانعها أفرغ
مجهوده وطاقته فى صناعتها ، مطرزا أعلى الباب بشعر أجاد فيه
قائله مفتخرا بلسان حال المحل ومخبرا عن نفسه كأن الغير
سائله ، قائلا :

أنا برج الفلاح سموت قدرا
أنا الملجأ لدى البأس الشديد
وعن أذن السמידع ذى المزايا
منار الدين ذى الخلق الحميد
أمير المومنين أبى عــــلى
سلالة أحمد الحسن المجيد
بنيت بناء اتقان وجــــد
فجئت على رضا الرأى الرشيد
وعن يمين القوس وبأعلاه ويساره بيتان اشتملا على تاريخ
البناء وطلب الدعاء للصانع ، والجميع من انشاء البنانى رئيس
البناء ومبدى أنواع الصنائع ، وهما :
يا سعد من ياتى الى من الورى
صدقا بقصد ولاية السلطان
وجميل تاريخى (افتخار طيب)
بالله فادع لصانع البنيان

ومن جملة اعتناء سيدنا أيده الله بالامور الجهادية تعيينه نصره الله عددا من ولدان أهل المراسى يتعلمون استخدام هذه المدافع بالآلاتها وكيفية تعميرها والرمى بها ، وجلب لهم معلما طبجيا يعلمهم ذلك ، فمكث فى تعليمهم مدة ، حتى أفرغ ما عنده ، وعلمه من همته مقبلة على الاستفادة ، وألمعيته تطلب من المعارف الزيادة، فأصبح معلما لغيره منهم ، وجعله سيدنا أعزه الله رئيسهم ومعلمهم ، ليتنافسوا فى نيل المعارف وتظهر ثمرة المعرفة بترقى العارف .

هذا وحيث حللنا بثغر طنجة السعيد أقمنا فيه للاستراحة ، لا للميل الى الدعة والراحة ، فاذا به بلغنا ان بقاعدة ملك الاصبنيول فتنة فيما بينهم ، وأن الطاعون حل أرضهم ، وقد أصيبوا منه بأعظم داهية وفى كل يوم ينتقل عدد منهم للهاوية ، فتثبطنا ريثما ينجلي الحال ويتضح الامر ، والله سبحانه فى خلقه كل يوم أمر ، ثم لم يزد ذلك عندهم الا شدة ، الى بلغ الأمر أشده ، ومن المقرر المعلوم عندهم جعل الكرنطيلة (38) أيام الوباء ، لما يعتقدونه من العدوى ، ويتحرونه من مواطن محال البلوى ، فلا تجد أحدا ممن جاورهم الا وهو يتحرى الدخول عندهم ، ولا يرد وارد من ناحيتهم الا رد قبل تحقق عافيتهم ، ولم تنزل أخبار الطاعون وكثرته كل يوم

(38) مدة الحجر الصحى وتطلق ايضا على مكانه ، ومعناها الاربعينية ، وقد كانوا يحجزون الموبوئين أربعين يوماً حتى تتأكد سلامتهم من الوباء ، والكلمة اسبانية .

تتجدد ، وربما أَلَمُوا فى ورقات أخبارهم بذكر العدد ، فقد ذكروا أنه مات به منهم عدد من الالوف ، وأنه زاد كثرة على المعهود منه والمألوف .

أما الفتنة الواقعة بينهم فقد آل أمرها الى الانحلال ، وبمشاهدة سطوة العزيز الجبار صارت الى اضمحلال . أما الطاعون فقد مكث فى أرضهم أربعة أشهر وانكشف ، وجملة من مات منهم على ما ذكره أزيد من مئة ألف .

ظهور التلفون بطنجة :

وفى خلال مقامنا بهذا الثغر السعيد هذه المدة ، أحدث النصارى فيه من عجيب الانشاء سلكا يخاطب الرجل فيه من شاء ، فيسمع المخاطب فيه خطاب صاحبه ، كأنما يتكلم بجانبه ، بلفظ صريح ، وصوت فصيح ، ويجاب فيه بأفصح جواب ، كأنما يتخاطبان وليس بينهما حجاب ، وذكر أن أول من أنشأ صبيان من أهل هذا الثغر ، كانوا يلعبون بجعبتين من قصب ، كل منهما مفتوحة الطرفين وقد ألصق على أحد الطرفين من كليهما جلد رقيق فيه خيط طويل ممتد بينهما متصل طرفاه بالجلد الملتصق بهما ، فيتكلم أحدهما بما شاء فى جعبة القصب التى بيده ، والآخر جاعل طرف الجعبة المفتوح فى أذنه ، فيسمع كلام مقابله ، وقد شاهدتهم يلعبون بذلك ، وأخذت احدى الجعبتين ، وجعلت طرفها فى أدنى وتكلم المقابل فى القصب التى بيده ، فسمعت قوله !! !

وحيث عاين النصارى ذلك واستحسنوه ، اعتنوا بأمره
وامتحنوه ، فأنتج لهم ذلك السلك الذى عظمت نتيجته وبهرت
حكمته ، ولقد شاهدت محله الجامع ، الذى تتفرق منه الاسلاك
لغيره من المواضع ، واستخدم بمحضرنا ، وبمرأى ومسمع منا ،
فسمعت خطاب من خاطبنى فيه ، واستوعبت ما لفظه فيه ،
وأعجب من ذلك أن بعض من حضر ، طلب فيه ممن خاطبه أن
يسمعنا ضرب البيانو (39) فسمعتة حين جعلت من آلات السلك نظير
جعبة القصب حذو أذنى ، ومن أعظم فوائده ، أن صاحب السلك
المكلف به لا يطلع على المتخاطبين ولا يسمعه وذلك لأن من يريد
مخاطبة غيره يخبر المكلف بالسلك أنه يريد مخاطبة
فلان ، فيعلمه بذلك فى سلكه الخاص به ، فاذا أجابه
بأنه حاضر منصت لسماع خطابه يعلم صاحبه بحضوره ، ويصل
سلك المخاطب بسلك المخاطب فيتكلمان بما شاءا من غير
واسطة ، وهذا مما يستغرب ويقضى منه العجب .

ولما انجلى الطاعون عن بلاد الاصبنيول بعد مقامنا
بشجر طنجة حرسه الله مدة من خمسة أشهر وعشرة أيام ،
منتظرين انجلاءه عن أرضهم ، وإباحة الخروج من عندهم
والدخول اليهم ، وردت (فركاطة) (40) من المراكب الحربية بقصد
حملنا والتوجه بنا لبلادهم بأمر من طاغيتهم (4I) فأخرجت عددا 21

(39) آلة شهيرة يعزف عليها ، وقد عربوها بالبيان . Piano

(40) سفينة حربية من نوع معين واللفظ اسباني Fragata

(4I) ملكهم ، وقد ظل المغاربة يطلقونه على الواحد من ملوك النصارى
وأمرائهم ، وكان هؤلاء يحتجون على نعتهم به .

من المدافع عندما وصلت، وأجيببت بمثلها من أبراج المدينة مثلما فعلت ، كما هي العادة ، جرياً على القوانين المعتادة ، ثم ورد علينا مع باشادورهم (42) رئيسها، وأخبرنا أنه وجهه مخزنهم (43) بقصد حملنا، وقد أمر بالاعتناء بنا والاهتمام بشأننا، وأظهر غاية الفرح والسرور لاجل توجهنا اليهم ، ذكر أنهم فى غاية التشوف لقدومنا عليهم ، لما لهم معنا من المجاورة والمحبة والاتصال ، فأجبناه بما يقتضيه الحال ، وقابلناه بما ينبغى أن يقابل به من حسن المقال ، وجازيناه خيراً، وأثنينا عليه وعلى دولته .

الابحار الى الاندلس

ثم انفصل عنا بعد تعيين يوم السفر ، وكان ذلك يوم الخميس الحادى عشر من صفر ، وبكرة يوم السبت بعده ، وجه الرئيس المذكور أحد كبراء نوابه ، ومعه (فلوكتين) (44) لحملنا ، فركبنا البحر فى واحدة منهما ، وركب أصحابنا الأخرى ، وحين بعدنا يسيرا من المدينة أخرجت المدافع منها وقوبلت بمثلها من (الفركاطة) لما قربنا اليها ، كل ذلك اعتناء بجانب مولانا المؤيد بالله أدام الله عزته وأبد سعادته ، وقد ركب أيضاً للسفر معنا باشادورهم بطنجة ، وبالغ فى البرور بنا والدلالة على ما يحمد ويناسب فى سفرنا ، ولما وصلنا للمركب المذكور ، لقينا من فيه من العسكر والطبجية ، والرؤساء والبحرية ، بأسنى الملاقاة

(42) سفيرهم ، واللفظ اسبانى Embajador

(43) حكومتهم ، والاطلاق مغربى .

(44) مثنى فلوكة : الزورق بالعامية المغربية ، وأصلها الفلك أى السفينة.

وأجملها ، على أحسن هيأتهم وأكملها ، مظهرين من الاجلال
والتعظيم ، ما يقابل بمثله كل شأن عظيم ، بأسلحتهم
وموسيقاتهم ، وتسليمهم على كيفياتهم ، وأنزلنا رئيسهم
بالقامرة (45) فى المحل المنتخب منها الرفيع ،
والمزخرف بأنواع الفرش وبكل شكل بديع ، وأولانا
من البشاشة والترحيب ، ما يقصر عن مثله الذكى
اللييب ، غير أنا بعد ما ركبنا البحر أظلمت فجأجه واشتد
هيجانه وتلاطمت أمواجه ، فتأخر الرئيس عن السفر بنا لاجل
ذلك الى الساعة التاسعة ليلا ، ثم تبين له أن السفر وقتئذ وان
كانت فيه مشقة لاباس فيه فاقلع عن المرسى وسافر بنا وقد
حصل الميد (46) لمن فى رفقتنا جميعا ، فلا ترى أحدا منهم الا مكبا
على وجهه صريعا ، ولم نزل كذلك طول ليلتنا نكابد تلك
المشاق ، ويرى من لم يعتد ركوب البحر أن لا تلاقى الى يوم
التلاق ، الى أن ظهر ضوء النهار ، ورأينا جدران قالص (47) الذى
اليه المنتهى ، فكانت رؤياه ألد على النفوس وأشهى ، وحمدنا
الله الذى أنقذنا من عسر البحر وهوله ، بمحض كرمه وفضله .

(45) الطبقة العليا من السفينة التى يكون بها غرف ربانها وكبار نوتيتها ،
واللفظ اسباني معناه الغرفة مطلقاً Camara

(46) دوار أو غشيان يصيب السكران وراكب البحر ونحوهما .

(47) قادس Cadiz ثغر اندلسى هام يقع على لسان ممتد فى مياه المحيط
الأطلنطى تجاه الساحل المغربى ، وله مرسى بيضاوى الشكل ترابط فيه بعض
وحدات الاسطول الاسباني ، عدا ما يقصده من السفن التجارية ، والمدينة
جميلة مشرقة علىيلة الهواء ، طويلة الرقعة ، تتخللها شوارع متوازية ضيقة ،
وساحات واسعة ظليلة ، وفى هذه الشوارع والساحات من النخل الشئ الكثير ،
عدد سكانها يقرب من المئة ألف نسمة . وقد كانت من جملة القواعد الاسلامية
بالاندلس الى ان سقطت فى يد النصارى سنة 621 هـ (1262 م) على عهد الملك
ألفونسو العاشر الملقب بالعالم .

الوصول لقادس

ولما وصلنا لمرسى قالص فى الساعة الثامنة والنصف من يوم الاحد ورد علينا حاكم المرسى مسلما علينا ومهنئا بقدومنا ، وطالبا أعلامه فى أى وقت نريد أن ندخل للمدينة فقابلناه بما ينبغى ، وأجبناه بأننا عند نظرهم ، والرأى فى ذلك اليهم، ثم رجع وبعد هنيهة وجه (بابورا) (48) صغيرا قدر (فلوكة) كبرى مفروشا محل ركوبنا منه بما يناسب ، فركبناه وركب من معنا فى غيره ، وبعد انفصالنا عن المركب أطلع رئيسه سنجق (49) سيدنا أعزه الله فى أعلى صواريه، وأخرج من المدافع إحدى وعشرين ، ولما قربنا من المدينة أجيب بمثلها عددا ، كل ذلك اعتناء بسيدنا أيده الله وتعظيما لعظيم جنابه العالى بالله .

ولما نزلنا بشاطئ البحر لقينا به حاكم المدينة وكبرائها وقوادها وعسكرها وأظهروا من الفرح بقدومنا ، والسرور والاعتناء بنا ، ما يستدل به على عظيم محبتهم ، فى الجانب الشريف المخصوص بمزيد التعظيم والتشريف ، وجاءوا بالموسيقى اظهارا لفرحهم ، ووجدنا هنالك أكداشا (50) جيدة أعدوها لركوبنا ، فركبنا احداها ، وركب معنا فيها باشادورهم بطنجة ، والحاكم ، وركب من معنا فى غيرها ، وتوجهنا صحبتهم ، حتى أنزلونا فى خير منزل وأرفعه .

(48) يطلق المغاربة لفظ البابور على السفينة البخارية ، ووصفه هنا بالصغير يدل على انه زورق بخارى .

(49) أى علم ملكنا ، والسنجق لفظ تركى معناه الراية .

(50) ج كوتشى بمعنى عربة واللفظ اسباني Coche

التزاور

وصار يتردد إلينا رؤساء المدينة ويعرفنا كل واحد بعمله ومرتبته ويهنئنا بالقدوم ، ويعرفنا بأن دولة الصبنيول حصل لها من الفرح بقدومنا ما لا حصر له ، وأن ملكهم عازم على المبالغة فى الاعتناء بنا ، وقضاء أغراض سيدنا الشريفة ، وقد ورد عليهم الأمر فى شأننا بالمبالغة فى اكرامنا والاعتناء بنا ، ثم جاءوا بأنواع المأكولات والمشروبات والفواكه والحلاوات ، وبما يذبح ويطبخ على يدنا ، وطلبوا منا الاقامه للاستراحة ان اقتضاه نظرنا ، فساعدنا على ذلك وأقمنا الى يوم الثلاثاء وفيه توجهنا عند كل واحد ممن قدم للسلام علينا بقصد الرد ، فقابلنا كل واحد منهم بالبشاشة والترحيب لا غير ، وأدخلنا حاكمهم لمحل اجتماعهم ، للمفاوضة فى تدبير أمور رعيتهم، وهو محل متسع مستطيل عليه قبو، وفى مقابلة الداخل اليه صورة ملكهم كأنه بنفسه جالس ينظر اليهم ، لابساً ما يلبسه فى محل سلطته وموضع حكومته ، فى محل مرتفع ، وبأعلى المحل الذى فيه صورته بناء بارز من الحائط مستدير مزخرف كأنه تاج مرتفع فوق رأسه، بينه وبين صورته قدر قامة (51)، وعليه أروقة من الموبر الاحمر، ومجاديل (52) من الحرير، تعقد بها أطراف الاروفة يميناً ويساراً وبجوانب هذا المحل مرايا قدر القامة عرضاً

(51) قـد الانسان .

(52) ج مجدول : حبل مفتول ، ويطلق خاصة فى المغرب على حبال حريرية رقيقة مفتولة ، تقبض بها الأروقة والحجب ، او تعلق بها الساعات والسيوف وأشباهاها .

والقامتين طولا ، وسراجيب (53) للضوء عليها أروقة
كذلك مثل أروقة صورة سلطانهم وبالمحل عدة
كراسى لجلوس كبرائهم عليها للمفاوضة مغشاة
(بالكمخة) (54) ، ولما خرجنا من عنده توجهنا عند قاضيهم
الذى هو وكيل الرعية والمتكلم نيابة عنها فى مصالحها ، ودفع
مضارها بحيث لا يلحقها ظلم ولا ضيم ، فلقينا بباب محله
رجلان كل واحد منهما حامل على كتفه شبه مقرعة من المعدن
الابيض لها فروع كأنهما يوهمان أن من لم يمثل الحق يشدخ
رأسه بالمقارع ، وان خرج قاضيهم عن الحق فكذلك ، فتقدما
امامنا ونحن فى أثرهما ، حتى دخلنا للمحل الذى فيه قاضيهم ،
وتقدما وراء محل كرسى جلوسه والتفتا قائمين منتصبين وراء
ظهره فقام لملاقاتنا ، وأحسن فى مخاطبتنا ، ولم نر فيمن لقيناه
بقالص أحسن منه آداباً ، ولا أرق منه خطاباً ، ولمجلسه شبه
بالذى تقدم قبله ، ربما يكون قريباً منه أو مثله ، وله أتباع ووزعة ،
وجدناهم بباب محله وبالمجلس معه ، وقد خرجنا من عنده
معجبين من ذوى المقارع وما يراد بها ، والظن أن ما نبهنا عليه
هو المقصود منها .

مشاهدة بعض حصون قادس :

ثم توجهنا عند قائد المخزن المكلف بالنظر فى أمر
العسكر والأبراج والمدافع والطبجية ، واليه المرجع فى ذلك ،
ولما وصلنا لداره لقينا أحسن ملاقة وبالغ فى الاعتناء بنا
والمجازاة ، وسألناه عن الأبراج والمدافع ، وقلنا له نحب أن نرى

(53) ج سرجب : النافذة بدون شباك .

(54) نسيج حريرى مستطيل تبطن به حواشى الأروقة والستر والملابس
الرفيعة .

البعض منها ولا كنه حيث هذا الوقت فيه المطر يشق عليك الوقوف معنا على ذلك . فأجاب بأن لا مشقة عليه فى ذلك ، وألح علينا فى الوقوف عليها ومعاينتها ، ومقصودنا أن نرى كيفية بنائها وعظم مدافعها وكيفيتها لنعلم الفرق بينها وبين أبراج طنجة الجديدة البناء فساعدناه وتوجهنا معه لبرج جديد بناؤه فيه مدافع متوسطة من نحاس ، سرائرها (55) يلتفت بها يمينا وشمالا بعجلات محمولة عليها من غير مشقة ، وفى السور طاقات (56) لافواه المدافع ، وأعلى محل المدفع مقبو (57) بحيث لا يلحق المدافع مطر يفسدها ولا الطبخية أذى من العدو وقت القتال بها ، وعمارة هذه المدافع من مؤخرها ، وكورتها قدر قالب السكر المعروف الآن وعلى شكله ، وفى هذا البرج مدفعان كبيران أكبر من المدافع الستة المجهزة بثغر طنجة ، حرسه الله ، أحدهما من خمسة وعشرين طنا والآخر من ثلاثين طنا ، وباطنهما مشرط شرطات ملتوية ، غير أنهما يعمران من مؤخرهما لا من أفواههما ولأجل ذلك يستخدمهما ثمانية أناس لا خمسة عشر ، وحركتهما أخف بكثير من حركة مدافع طنجة ، وقد رأينا حركتهما وكيفية تعميرهما وغير ذلك من كيفيات استعمالهما مما يبين أنهما فى غاية الجودة والالتقان ، وعدم المشقة فى الاستعمال مع الاختصار فى الآلات وعدد الرجال ، إلا أن الأبراج التى جددت بثغر طنجة ، لاستخدام مدافعها فيها ،

(55) ج سرير وهو فى الاصطلاح المغربى ما يحمل عليه مطلقا .

(56) نوافذ صغيرة .

(57) مغطى بسقف مقوس ، مأخوذ من كلمة قبو وهو البناء المعقود بعضه

الى بعض ، ويطلق القبو فى المغرب خاصة على السرداب المقوس السقف .

أتقن عملا وأحسن شكلا ، فهذه محصبة وأبراج طنجة مجصصة
جصا متقنا محكما ، وهذه بعيد عن مدافعها ما يتوقف عليه
لاستعمالها ، وتلك قريبة منها حتى كادت أن تكون متصلة بها ،
وفي أبراج طنجة محال يتوسع المكلفون بعملها فيها ، ولا يلحقهم
أذى وقت الاضطراب اليها ، وليست هذه كذلك وغير ذلك من
المحسنات التي تفضل بها أبراج طنجة على هذه تنميكا واستعمالا
ووقاية ، وليت مدافعها كانت تعمر من مؤخرها كهذه ، اذ لو
كانت كما تمنيناه لكانت جامعة مانعة .

ثم بعد الطواف على هذه المدافع ومعاينة آلاتها وما هو
مدخر عندهم لاستعمالها في خزائن أوقفونا عليها أخبرنا القائد
المذكور ، ان عندهم مدفعين من خمسة وأربعين طنا في الواحد ،
وهما بعيدان ولكثرة المطر وقتئذ وبعدهما عن المحل الذي
نحن فيه لا نقدر على الوصول اليهما ، وحين رجوعنا بالسلامة نقف
عليهما ، فجازيناه خيرا وخرجنا من البرج المذكور ووادعنا هو
ومن معه من قواد الطبجية ، ورجعنا لمحل نزولنا .

السفر الى مدريد

فأخبرنا الباشادور أن ركوبنا يكون في (بابور
البر) (58) بالتوجه فيه لمدير الذي هو قاعدة ملكهم في
الساعة الخامسة من الثلث الاخير من الليل فبتنا
متأهبين لذلك ، وفي الوقت المذكور خرجنا لمحل
(البابور) في (أكداش) أعدت لركوبنا ، و(كروصات) (59) لحمل

(58) القطار .

(59) عربات واللفظ اسباني Carroza

حوائجنا (60) ، وخرج معنا حاكم البلد لوداعنا وللوقوف في أمر ركوبنا ، ولم يزل معنا حتى ركبنا في محل من (البابور) من أفضل محاله وأجملها ثم وادعنا وسافر البابور ، فمكثنا يومنا كله واليلة التي بعده وهو يمر كالريح العاصف ، ومروره في طريق مستوية ، لا منخفضة ولا مرتفعة ، ومررنا تحت جبلين كل منهما يمكث في مروره فيه نحو خمس دقائق ، وبمدن متعددة من جملتها (الدوا) (وبرط الريال) ومنها مررنا على (وادي أليطى) ومنه مررنا بمدينة اسمها (بويرط سانطا مارييا) ، ومنها بمدينة (خريس) ، ومنها الى (لبريخا) ثم (لانكرطرياس) ومنها (ألطيريرة) ومنها (لضوس أرمانس) ومنها لـ (اشبيلية) ، وكان وصولنا اليها في الساعة العاشرة والنصف ، فبينها وبين قالص مقدار خمسة أيام لراكب الدابة وقد لقينا حاكمها ورحب بنا غاية الترحيب وأقارب باشادورهم بطنجة ، وبنات أخيه كذلك ، وقف بنا (البابور) هنالك ثلث ساعة ومررنا بغيرها من المدن وفي كل منها يقف دقيقتين أو ثلاث لنزول من أراد النزول بها وركوب من شاء الركوب أو لتجديد الماء أو نحو ذلك ، ثم يسافر ، ووصلنا مدينة قرطبة بعد الزوال بساعتين الا ثلث ، فتلقانا بها حاكمها وعسكرها بالموسيقى الكبيرة ، وقال ان الدولة الاصبنيولية حصل لها السرور والفرح الكبير بقدومكم وغير

(60) جمع حاجة ، والمراد بها هنا متاع الرجل وما يأخذه معه اثناء السفر والاطلاق مغربي .

ذلك من مقولاتهم فى الترحيب وأظهر غاية البشاشة وقابلناه
بما يناسبها كذلك ، ثم سافرنا ومررنا على مدينة يقال لها
(أندوخا) فلقينا حاكمها كذلك وقابلنا بما قابلنا به
غيره من الحكام ونحن كذلك ، وعلى مدينة تسمى
(القصر) فتلقانا حاكمها كذلك ورحب بنا وركب فى
(البابور) معنا الى ان وصل معنا الى مدينة (ليرنخويس) وهى
آخر محل من ولايته . فوقف (البابور) الى أن وادعنا الحاكم وكان
ذلك كله ليلا .

الوصول الى مدريد

ووقت الشروق أشرفنا على مدينة مدريد ولم نلبث
الا يسيرا بعد اشرافنا عليها حتى كنا بطرفها فلقينا هنالك قائد
مشورهم (61) ونحن مازلنا بالبابور، ورحب بنا، وطلب منا النزول
من (البابور) فنزلنا منه، وركبنا فى أكداش أعدت لركوبنا. وبعد
الركوب فيها ذكر لنا أن السبب فى عدم ملاقاتهم لنا بالعسكر هو
أن ملكهم محتضر، وتوجه بنا لمحل النزول ، فأنزلنا فى محل معد
لنزول من يرد من الكبراء لمدير جامع لنا ولمن معنا من رفقاءنا
وعين لكل محلا يناسب مرتبته، فيه سرير للنوم (وشليات) (62)
و(كنبيات) (63) مغطاة بأثواب الحرير وأروقة من الموبر
والكمخة ، ومراء و(مواجين) (64) وأكواب وأباريق وغير ذلك

(61) قائد المشور رتبة ادارية مغربية تعنى رئيس البلاط الملكى المتصرف
فيمن به من أعوان المخزن . والمؤلف يعنى هنا مدير التشريفات لان قائد المشور
هو الذى يقدم فى المغرب سفراء الدول الاجنبية الى ملوكه .

(62) ج شلية : الكرسي ، والكلمة اسبانية Silla

(63) ج كنبي : أريكة ، والكلمة ايطالية Canapé

(64) ج مكانة : الساعة فى لغة أهل المغرب .

مما يحتاج اليه، ويتوقف عليه، وعين لنا محلا لملاقاة من يرد علينا من الكبراء غير انه لا سرير فيه حيث هو معد لما ذكر ومحلا للاكل لانهم لا ياكلون الا فى المحل المعد لذلك لا فى محل النوم ولا فى محل الجلوس وعين لكل اثنين ممن معنا من القواد والأصحاب محلا فيه سريران وما يتوقف عليه المحل ويحتاج اليه فيه ، واكثر هذه المحال مشرفة على متسع هو وسط بلادهم ومحل اجتماع اكداشهم ومرور عساكرهم ومدافعهم لدار مخزنهم(65) ولمحل تعليم حربهم، وبوسط هذا المحل صهريج مستدير متسع جدا فى وسطه محل مرتفع عن سطح الماء مستدير فيه عدة أنابيب اوسطها يرتفع منه الماء مقدار خمس قامات مستقيما كانه ساق شجرة وغيره يخرج منه الماء مقدار ثلاث قامات كجريد النخل فى الارتفاع والانعكاس والاستدارة ويقع الجميع فى الصهريج المذكور ، ثم يخرج ماء الصهريج من منفذين متقابلين كل منهما مأؤه يدير الرحى .

وصف مدريد

ومدريد كان قبل قرية من قرى بلادات المسلمين فبناه النصارى بناء أجادوا فيه واتقنوه ، ووجهوا وجهتهم اليه واستحسنوه ، وكانت (طليطلة) قبل دار ملكهم ، اذ هى دار حكمة اليونان ، ومحل ملكهم من اول الزمان ، فانتقل من استحسنه منهم عنها اليه ، وجمعوا كلمتهم عليه ، وجعلوه قاعدة ملكهم ومحل سكنى ملوكهم، لانه فى بسيط من الارض، متصل

(65) دار المخزن : قصر الملك .

العمارة فى الطول والعرض ، ذو ابنية مرتفعة ، وطرق مستقيمة متسعة، تمر فيها (الكروصات) و(الاكداش)، فى الليل والنهار مرور الفراش ، فلا يقع بينها ازدحام مع كثرتها ، ولا مصادمة مع سرعة سيرها وتخالف وجهتها ، فقد ذكروا ان عددها ينيف على العشرة آلاف من غير شك عندهم فى ذلك ولا خلاف ، وان عدد الانفس الذين يسكنون فيه الآن خمسمئة ألف بين رجال ونساء وصبيان ، وقد حاز من الحضارة اجملها واحتوى على دكاكين جمعت من انواع السلع ومنتخب التحف جلها .

وفاة ملك الاسبان

وكان دخولنا فيه صبيحة الاربعاء 17 من صفر ، ووقت الزوال من هذا اليوم ورد علينا منهم من اخبر ان ملكهم ألفونسو (66) اخترمته المنية، وبعد هنيئة ورد علينا باشادورهم بطنجة وحقق لنا ذلك ، فسقط فى ايدينا ، وخشيننا من اضطرابهم ، ووقوع الفتنة بينهم ، فوقانا الله مما توخيناه، ولم يصدر بينهم شىء مما ظنناه ، بل بقى أمرهم على حاله كما كان حياة سلطانهم، ولم يختلف أحد منهم فى شىء ، ولا فى أن السلطانة (67)

(66) هو ألفونسو الثانى عشر ابن فرانسوا داسيس دى بور بون - كاديس والملكة ايزابيلا الثانية ، ولد بمديرى سنة 1857 وتولى الملك يوم 28 دجنبر 1874 وتوفى يوم 28 نونبر 1885 .

(67) هى الملكة ضونيا ماريا كريستينا Dona Maria Cristina الزوجة الثانية للملك ألفونسو الثانى عشر ، ولدت فى كروس - سيلويتر سنة 1858 ولما توفى زوجها تركها حاملا فولدت فى 7 مايو سنة 1886 ابنها الملك ألفونسو عشر واقامت وصية عليه الى سنة 1902 فبدأ يمارس بنفسه شؤون الملك . وكانت وفاتها سنة 1929 أما الفونس الثالث عشر فانه خلع عنه قيام الجمهورية بأسبانيا عام 1931 وتوفى منفيا عام 1941 .

هى زوجه، وحين تضع حملها فان كان ذكرا فبعد بلوغه يرد الأمر اليه، والا فيرجع الامر لأكبر بناته، والسلطانة أمهم حاضنة وقائمة مقام من يرجع اليه الامر من أولادها لاتفاقهم على ذلك من قديم، والتزامهم اياه على ان يكون النظر فى الامور للوزراء، وليس على متولى الملك الا الامضاء !

وللملك عندهم مرتب عظيم يقوم به وبتعلقاته ويفضل، وللوزراء كذلك، نعم اول ما فعلوه هو تأخير الوزراء وتعيين غيرهم، ثم الاتفاق على من يتولى أمر ملكهم، وبعد تمام الأمر وانبرامه وتأسيس الملك واحكامه، أشاعوا ذلك فى ورقات أخبارهم، واخبروا بمن ولى السلطنة والوزارة منهم، ولم ينقل لنا عن أحد منهم انه خالف فى ذلك ولا انحرف، بل جميعهم امتثل وأذعن لذلك وقبل واعترف .

وكان السلطان المتوفى أدركته المنية فى محل له خارج مدريد كان ياوى اليه، ويقتصر فى غالب اوقاته عليه، فأتى به منه بعد ثلاثة أيام من وفاته لمديره، على اكمل وصف، والعساكر والرؤساء محتفون به من امام وخلف، وادخلوه لدار ملكهم بعد ما صبروا جثته ظاهرا وباطنا لتبقى على حالها، ولا يلحقها تغير مع طولها، واباحوا الدخول عليه، والنظر اليه، ومكث بدار الملك وهو ميت سبعة ايام، وفى خلالها وجه من جاورهم من دول النصارى من رؤساء دولهم من يحضر جنازته وصلاتهم عليه فحضروا لذلك، وذكر لنا أن عدد من حضر الصلاة عليه ستة عشر الفا وبعد ذلك توجهوا به لمحل دفن ملوكهم وهو محل يسمى

(اسكوريال) (68) على بعد من مدريد بثلاث ساعات فى (بابور البر) ، قيل ان عندهم فيه من كتب المسلمين الفى كتاب كانت بقرطبة ونقلوها اليه (69)، وطلبوا منا غير ما مرة أن نتوجه لهذا المحل لرؤياه ومعاينة ما فيه من كتب المسلمين فلم يقدر الله ذلك، واخبروا أن ملوكهم اذا ماتوا يجعلونهم فى صناديق من رخام مكتوب عليها اسم صاحبها ويضعوها فى محل اعد لذلك، ونحن لم نر شيئاً من ذلك كله ولم ندع اليه وانما نقل اليها خبره ، ولذلك لم نتوسع فى التعبير عنه .

(68) Escorial قرية تقع على بعد 40 كلم من مدريد فى جبال سييرا واد الرامه وبقربها يوجد القصر والدير اللذان بناهما (1562 - 1584) الملك فيليبي الثانى وفاء بنذر كان نذرة فى وقية القديس كاتين (1557) لما دمرت المدفعية الاسبانية كنيسة منسوبة اليه . وفى دير الاسكوريال توجد مكتبة حافلة بالكتب الاسلامية .

(69) الحقيقة أن معظم الكتب الموجودة فى دير الاسكوريال كانت فى خزائن ملوك المغرب السعديين ، وسبب انتقالها الى اسبانيا ان السلطان زيدان السعدى بن السلطان مولاى أحمد المنصور الذهبى قام عليه أحد أقاربه فاضطر للفرار من مراکش الى سوس حيث كانت توجد شيعته ، وكان أول ما فكر فيه لدى فراره ان ينقل كتب الخزانة السلطانية من مراکش الى المكان الذى يفر اليه ، فجعلها فى صناديق وأرسلها الى مرسى آسفى لتشحن فى سفينة فرنسية الى أحد المراسى السوسية ، ولما وصل بها الربان الى المرسى المقصود انتظر مدة ليحوز اجرتة . ولما طال انتظاره هرب بشحنته الثمينة ، ولما كان فى عرض البحر طارده قرصان اسباني واستولى على السفينة ظناً منه ان الصناديق الموجودة فيها مملوءة ذهباً ، ولما فتحوها لم يجدوا فيها الا الكتب ، فارتأوا ، لحسن الحظ ، ان يقدموها الى ملكهم فيليبي الثانى الذى كان منهمكاً يومئذ فى بناء دير الاسكوريال فوضعها فى خزائنه ، وقد ظلت هذه الكتب محل نزاع بين الدولتين المغربية الاسبانية طيلة قرون . وأوفد ملوك المغرب سفارات عديدة الى اسبانيا للتخابر مع حكومتها فى اعادة تلك الكتب الى المغرب فكانت اسبانيا تعتذر كل مرة بانها محبسة على الدير والحبس لا يفوت . على انه لا يستبعد ان تكون بعض الكتب التى نجت من الاحراق بالاندلس ضمت الى تلك الكتب المغربية .

أول اجتماع بوزير الخارجية :

وقد أقمنا بمدريد قبل الملاقاة مع سلطانتهم أياماً منتظرين تمام ايام الماتم عندهم ، وفيها ورد علينا لمحل نزولنا الوزير الجديد فى الامور الخارجية للسلام علينا والتهنئة بقدمنا والسؤال عن أحوالنا تعظيماً لجانب سيدنا ، وتلك أول رؤيا رأينا ، وأول مخاطبة خاطبناه ، فاذا هو طليق الوجه ، ظاهر البشر ، يتلمح منه الجد وجميل الاوصاف ، بالاعتراف بالحق والانصاف ، وقد خاطبنا خطاباً تبين منه أنه عاقل لبيب ، بأدب وترحيب ، وقابلناه بسثل ذلك ، وهنأناه بالمرتبة التى نالها ، والوزارة التى ترقى اليها ، فسرره ذلك الخطاب ، وأجاب عنه أحسن جواب ، وأظهر التأسف على ما صادفناه من عظيم مصيبتهم ، التى هى موت ملكهم ، ثم وعد بكل جميل ، وبقضاء أغراض سيدنا الشريفة الحقير منها والجليل .

زيارة الاسطبلات الملكية :

وكانوا فى خلال تلك الايام يطلبون منا أن نتوجه لرؤيا أماكن لهم ، معتبرة عندهم ، ويقولون ان ملازمتكم محل نزولكم يحصل لكم بها الضجر ، ونحب أن تكونوا مسرورين ، فاعاد الوزير ذكر ذلك بقوله ، وأكد به بمثله ، فتوجهنا اذ ذاك لرؤيا مراكب سلطانهم ، خيلاً وسروجاً وأكداشاً فاذا هو محل عظيم البناء ، واسع الأرجاء ، مشتمل على أماكن متعددة ، وطرق مقبوة ، وسوارى من حجارة هائلة ، وأول محل دخلناه من ذلك ، محل

السروج واقامة الاكداش وما يهدى لهم من نحو ذلك ، سعدنا اليه فى درج أفضت الى غرف مستطيلة مع سعة وفيها عدد من السروج منها ما هو على الشكل الذى يركبون به ، ومنها ما هو من سروج أهل جزيرة الاندلس كسروجنا الآن ، الا أن مقدم السروج ومؤخرها أقصر وأوسع من مقدم سروجنا ومؤخرها ، وركاباتها بعضها مغلفة من جهات ثلاث ، والبعض من جهتين فقط أكبر من ركاباتنا ، غير أنها قريبة الشكل منها ، وغباراتها (70) من حرير أطلس سماوى مرصع بالصقلى (71) وفى هذا المحل خيل مصبرة كانت فى غاية الجودة يركبها بعض ملوكهم ، والى جانبها صور المكلفين بها من خدمتها الذين من عاداتهم أن يتوجهوا بجانبى الفرس حال ركوب سلطانهم عليها ، وهم راجلون لابسون حللهم التى يلبسونها وقت ركوب ملكهم كأنهم أحياء .

وفى هذا المحل ما يجبى اليه من التحف والهدايا التى لها علاقة بالخيول واستعمال لها ، وقد ألفينا منها هنالك جلالات الخيل المنسوجة بعمل الزردخان (72) بالصقلى التى هى من عمل فاس ، وغير ذلك مما يطول بنا القول فى وصفه ، ولا كبير فائدة فى ذكره ، وانما المراد بيان ما لهم من الاعتناء بالامور وادخالها مع مرور الازمنة ، ليشاهد الاخير عمل من قبله .

(70) ج غبارة : نسيج من النوع المسمى بالزردخان يغطى به السرج وهو الذى يجلس عليه الفارس مباشرة .

(71) خيوط رقيقة مغطاة بذهب يطرز بها الثوب ونحوه . ولعله مما نقل الى المغرب من جزيرة صقلية أثناء حكم المسلمين لها لانه منسوب لها .

(72) نسيج حريرى معروف كان فى الاصل مما يلبسه ملوك فارس كما تدل على ذلك الكلمة . وهو مما يصنع بفاس

ثم دخلنا لمحل الاكداش التى يركب فيها ملوكهم وما زالت
معدة لذلك، وعددها أربعة عشر كدشاً، منها ما هو أسود اللون
رفيع مرتفع الثمن فوق الغاية ، ذكروا لنا ما يثمن به ولم يبق
بالبال ، ومنها ما ظهره مغشى بالباغة (73) ومنها ما هو من غير
ذلك وكلها عظيمة الجرم مموهة بصفائح الذهب، وبعضها مرصع
بالاحجار واليواقيت مفروش بأثواب الحرير، وكل واحدة منها
يذكرون اسم ملكهم الذى كانت له ، وهى فى محل طوله نحو مئة
ذراع فى عرض خمسين ذراعاً مقبواً أعلاه وفيه كرات للضوء
مستورة بالزجاج ، وكل كدش منها مسدول عليه أروقة بحيث
لا يلحقها ما يشينها وكلها ما زالت على جدتها كأنها لم تستعمل
مع قدمها وطول عهدها .

ثم دخلنا لمحل آخر فيه عدة أكداش كمطلق الاكداش
الجيدة ، وفيه ما يزيد على مئة كدش بين صغير وكبير ، منها
ما يركب فيه نساؤهم وأبنائهم ومنها ما يتوجه فيه أمراؤهم
للاصطياد ونحوه ومنها ما كانوا يركبون فيه فى صغرهم ، وهذا
المحل فى غاية الاتساع وارتفاع السقف وفيه من قناطر (74) الخشب
ما يجاوز طول القنطرة مئة ذراع ، موصول بعضها مع بعض ،

(73) الباغة كما سيفسرهما المؤلف فيما بعد عظام السلحفاة تملس وتلبس
بها الحقق والصناديق ونحوها فيرى من ظاهرها ما بباطنها .

(74) ج قنطرة وتطلق فى اللغة على الجسر وكل ما يعبر عليه . ولها دلالة
اخرى عرفية مغربية ، وهى عماد غليظ من خشب يوضع فوق جدارين متوازيين
ويبنى عليه .

وفى وسطه خصه (74) مرتفعة ينسكب ماؤها من محل جريانه على صور عبید واماء كأنهم يغتسلون ، ثم خرجنا من هذا المحل ودخلنا لأروية (75) الخيل ، فوجدنا فى كل أروى منها نوعا من أنواع الخيل العظيمة الجرم والمتوسطة والصغيرة ، منها القريب من جرم الحمر والأفراس الاناث ، وعدد الجميع ينيف على المئتين ، وفيها من خيل مغربنا اثنان ، أحدهما يسمى عندهم (القاضى) والثانى يسمى (الشريف) ، وفى مقابلتهما العشرة من الخيل التى كانت معنا (76) ، وكل أروى من هذه الأروية يقف معنا فيها المكلف بها ويعين لنا أصل الخيل التى فيها ما هو منها من الاندلس ، وما هو من النجليز ، وما هو من الحجاز ، ومن مصر ، ومن المغرب ، ومن غير ذلك ، وهذا يركبه سلطانهم فى الاصطياد وهذا للاكداش ، وهذا لركوب السلطنة يعنى زوجة الملك وهذا كان يركبه ملكهم فلان ، ومدة مكث كل منها الى غير ذلك من الاخبار عما يتعلق بها ، وخيلهم فى غاية الجودة ، الا أن أعناقها طويلة رقيقة يظن رائئها ابتداء أنها اناث ، وهذه الأروية كل منها مشتمل على ثلاث بلاطات يمينا

(74) الخصه بصاد وسين حوض مرمرى فى وسطه نافورة ماء يكون بوسط المساجد والقصور والبيوت الفخيمة ، وهى المعروفة فى الشرق بالفسقية .

(75) ج أروى : اسطبل ، وفصيحه أرية وهى المحل الذى تحبس فيه الدواب .

(76) هذه الجملة تدل على أن السفارة المغربية جاءت معها بعشرة من الافراس على سبيل الهدية .

ويسارا ووسطا ، مستطيلة ، وسوارى وأحجار مرتفعة وبين السارية والتي تليها مربوط فرس واحد ، بفاصل من خشب بينه وبين الفرس الآخر، ومحل وقوفها مفروش بالتبن، والبلاط الوسط فارغ لا شئ فيه وهو فى غاية النظافة .

زيارة متاحف مدريد

ومن جملة الاماكن التى دخلناها ، وتعجبنا منها حيث رأيناها ، دار عظيمة البناء واسعة الفناء ، مشتملة على محال متعددة، وأول محل دخلناه منها بعد صعودنا فى درجها وتعجبنا من تعدد صورها المنحوتة من الرخام وعظمها ، وجدنا فيه من أنواع المعادن ما لا حصر له، كل معدن ما زال على حاله وصورته وأصل خلقته التى كان عليها فى المحل المجلوب منه مكتوب فى ورقة بجانبه اسمه والمحل الذى وجد فيه .

فمن ذلك الزمرد الاخضر ، وهو بارز من حجارة ليست على لونه ولا صفته ، ولكنها من جملة أجزاء المتصلة به ، لا كما يقال انه يوجد فى وسط حجارة، يسمع صوته بباطنها اذا حركت بعنف ويمكن أن يوجد أيضا كذلك ، ومنها الديامند (77) الشديد البياض واللمعان مغروز فى وسط حجارة جلب فيها كذلك من معدنه ومن اللؤلؤ فى صدفه رأينا منه جوهرتين متصلتين كل واحدة منهما بجانب من الصدفتين اللتين كانتا منطبقتين عليهما فى البحر، ذكر الانطاكي فى تذكرته أن أصله دود يخرج فى نيسان فاتحا فمه للمطر حتى

إذا سقط فيه انطبق وغاص حتى يبلغ أواخر اكتوبر الخ، وكل واحدة منها على قدر الحمص الغليظ ، ومنها البلور رأينا بجانب الحجر المجلوب من معدنه لوحا صغيرا بلوريا مقدار أربعة أصابع طولا وعرضا استخلص منه وذكروا أن ذلك اللوح يبلغ ثمنه خمسمئة ريال ، ومنها الذهب والفضة ، والنحاس ، والحديد ، وغير ذلك من أنواع المعادن التي نعرف أسماءها والتي لا نعرفها ، ومرادهم بها معرفتها على أصل خلقتها وتعريف المتعلمين بها للبحث عنها وكيفية استخراجها واستخلاصها مما خالطها من الاجزاء المتصلة بها وفصل كل نوع من الانواع التي خالطتها على حدته ، فقد رأينا مثل ذلك فى محل التعليم باشبيلية وفيه قطارات وآلات لاستخراج المياه التي يتوصل بها لذلك ، ولما يحتاجه أطباؤهم منها .

ثم دخلنا لمحل ثان منها فوجدناه جامعا لانواع الطيور التي لا حياة فيها وهى مصبرة باقية على حالها كما كانت وقت حياتها ، مما نعرفه منها وما لا نعرفه ، من جملتها النسر ، والعقاب ، والبازى ، والغراب ، والاوز على أنواع مختلفة ، واشكال غير متفقة ولا مؤتلفة ، وماشاكلها من طيور الماء ، والبيغاء على ألوان مختلفة ، وغير ذلك من أنواع الطيور التي لا يحصرها عد ، ولا تحد بحد ، ومن جملتها الدجاج الحبشى والاهلى وقد رأينا منه دجاجة لها قرنان فى رأسها وطيور صغيرة جدا قدر الانملة ذكروا أنها جىء بها من امريكا بثمان له بال .

ثم دخلنا لمحل ثالث من هذه الدار فوجدنا فيه الثعابين ، والحيات على أنواع وأصناف مصبرة ، منها الطويل والقصير والمتوسط وفيه حية كالنخلة السحوق ، طولها أكثر من عشرين شبرا ، ذكروا أنها مدة وهى عندهم بالحياة الى أن ماتت وصبروها فبقيت عبرة للمعتبرين ، ورأس هذه الحية غير غليظ كجرمها وعنقها أرق من وسط بدنها ، وبدنها أغلظ من ساعد الرجل الممتلىء الضخم .

وفى هذا المحل من أنواع السمك المصبرة عدد كثير على اختلاف الانواع والاجناس ، من جملتها سمكة بالمنشار فى رأسها على هيأته وكيفيته وفيه من السلحفاة البحرية العظيمة الجرم عدد مصبر أيضا ولا فرق بينها وبين السلحفاة البرية الا فى عظمها لان التى رأيناها ذواتها نحو ستة أشبار طولا وقريب منها عرضا وقشرها هو الباقة التى تستعمل منها الاشياء الرفيعة ، ويرى ما بباطنها من ظاهرها .

وبجانب هذا المحل محل آخر متصل به ، فيه عظام رأس حوت كاد أن يملأ المحل الذى هو فيه طولا وعرضا يتعجب من عظمه ، وفيه فيل مصبر قائم على أرجله أعظم من الجمل طولا وعرضا ، وفصيل جمل مصبر ، وبغلة مخططة بياضا وسوادا خطا بخط مصبرة كذلك كانت عندهم بالحياة قبل ذلك ، وحمار الوحش والكركدان والأيل وغير ذلك من الوحوش التى ليس فى استيعاب ذكرها عظيم فائدة .

ودخلنا لمحل آخر فوجدنا فى محل منه عظام رؤوس الآدميين،
الرأس ما زال على حاله متصل الفكين بأسنانه وثقب العين منه
والانف ، وفى محل آخر منه عظام لآدمى متصلة كامل الذات
برجليه ويديه ورأسه وضلوعه من غير أن يفقد من عظام جثته
شئ حتى اصابع يديه ورجليه وكفيه وقدميه وساقيه وركبتيه
وذراعيه وساعديه على كيفية تركيبه العجيب وصنعه الغريب فى
ظلمات الاحشاء ، فسبحان القادر على ما يشاء ، انما أمره اذا أراد
شيئا أن يقول له كن فيكون ، وقد رأينا بهذا المحل ، ذواتا
متصلة العظام تامة صغيرة الاجسام متصلة أيديها بأرجلها كادت
أن تكون منكبة على وجوهها ذكروا أنها موتى أهل امريكا، وأنهم
كانوا فى القديم يدفنون موتاهم على تلك الكيفية التى رأيناها
عليها وقدكدنا أن يغمى علينا فى هذا المحل مما رأيناه، ومن قبيح
رائحة جعلوها فيه حين أرادوا أن يدخلونا اليه ، فخرجنا منه
مسرعين وأبنا الى محل نزولنا فى الحين .

وأحسن مكان دخلناه دار جديدة البناء واسعة الفناء اشتملت
على أماكن رفيعة وأشكال مستحسنة بديعة ، جامعة لانواع
الصناعات المغربية ، فى تسطير الخشب وطلائه المختلف
الالوان وأنواعه التى تستعمل عندنا فى أرفع مكان ، وتزويق
الجبس والخشب ونقشهما بأنواع الصناعات التى تصرف فيها
أسنى البضاعات مموه ذلك كله بطلاء، كالذهب فى الاشراق، يود
ان يكون له مثل ذلك من لم يكن ذا املاق ، مكتوب فى وسطه :

الملك لله ولا غالب الا الله بخط كوفى ، وجدرات هذا المحل
مرصعة بأنواع الزليج ، على اختلاف أنواعه وأشكال عمله البارع
البهيج ، كل شكل منها فى محل على حدته ، مع صفاء الزليج
وجودته ، فمنه ما هو بعمل التسطير ، الذى ليس له فى البهاء
نظير ، ومنه ما هو بغيره من الانواع ، التى ترق لها الانفس
وتستحسنها الطباع ، ومن جملة ما وجدناه عند صاحب هذه
الدار ، وحصل لنا من الاسف ما حصل حيث ألفينا ذلك بيد
الكفار ، لوح من الألواح التى يقرأ فيها صبياننا مكتوب فى احدى
جهتيه : (قل يا أيها الكافرون) وفى الاخرى : (عم يتساءلون عن
النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون) غير أننا لما قرأنا تلك
الآيات ، وتدبرنا ما تضمنته من عجيب الدلالات ووافق مدلولها
الحال ، وما نحن فيه من مشاهد الكفار وتحسين مالهم من المحال ،
صرنا نردد تلك الآيات ، ونحمد الله على نعمة الاسلام التى هى
أعظم النعم وأسنى البضاعات ، فنسأله سبحانه أن يमितنا على
دين الاسلام ، وأن يختم لنا بخير الاعمال بجاء النبى عليه
أفضل الصلاة وأزكى السلام .

ثم خرجنا من هذا المحل ، محسنين لهم عمله ، وسألناهم
عن مباشر ذلك من العملة ، فذكروا أن المباشرين لذلك منهم
أخذوه من عمل المسلمين (بغرناطة) واليها فيما يتوقفون عليه
مرجعهم ، وأنهم مهما أرادوا جعل نوع من تلك الانواع ، توجهوا
اليها ومدار أمرهم فى جميع ذلك عليها ، وقد بالغ صاحب هذه
الدار فى الترحيب ، بالوجه الطلق والصدر الرحيب ، وحصل له
بقدومنا لمحله غاية السرور وأظهر من البشر والبشاشة ما

تنشرح به الصدور، كما أظهرت زوجه مثل ذلك انشراحا وسرورا
واظهارا لمخباتهم النفيسة وما كان منها لديهم مدخرا ومستورا
من الاشياء القديمة التى يفتخرون بادخارها ، والامور الغريبة
التي يجلبونها من أقطارها ، فنحسن لهم ذلك ونعظم أمره ،
ونظهر لهم أنها أشياء معتبرة .

حديقة الحيوان

ومن جملة ما شاهدناه من أماكنهم التى يعتنون
بأمرها . ويرون أن لهم افتخارا بسببها ، محل الوحوش
وهو محل متسع لا سور له وانما أحيط به شباك من
حديد من ناحية الطريق، وفيه أشجار كثيرة، وبجوانبه الثلاثة
بيوت متعددة مربعة كل بيت منها مقدار اثنى عشر شبرا طولا
ومثلها عرضا فى كل بيت منها نوع، والرابع من تلك البيوت
الموالى لوسط المحل مغلق بشباك من حديد يرى منه ذلك النوع
من الوحوش الذى بداخله ، ولا يلحق أحدا منه أذى ، فمن ذلك
الاسد ، والذئب ، والثعلب ، والضبع ، والفرد ، على اختلاف
الانواع كبير الجرم ومتوسطه كالمعروف عندنا وصغيره وغير
ذلك من أنواع الحيوان .

وكنا لا نمر فى طريق من طرق مدريد الا وجدنا
فيها خصة مرتفعة منها ما ينزل مأوها على صورة من
الصور ، ومنها ما يخرج من الصورة نفسها ، أو عمود بأعلاء
صورة ملك من الملوك الاقدمين كامل الصورة ، ملتحفا بشبه
ازار متقلدا بنوع من أنواع السلاح الذى كان يستعمله وقت
حياته ، لابس نعله على الصفة التى كان عليها نحو ما كان يلبسه،

لا على كيفية النعال التي تستعمل الآن وكأنهم يستشهدون بذلك، على ما أدركه المتأخرون من الحضارة، وما كان عليه من قبلهم من البداوة، ولا يرى محل من محالهم الا وفيه عدد من صورهم ، ومن جملتها صورة نصراني راكب على فرس كلاهما من نحاس ، على هياتهما وصورتهما لم ير رجل ولا فرس أعظم منهما جثة ، والنصراني مشير بيده ، وسألنا عنه ، فذكر لنا أنه هو أول من عرف أمريكا (78) وعرف بها ولما وجه معه من يعاينها بعد أن حد لهم حدا يوصلهم اليها وكان أول من رآها بعد اليأس منها فبدأ يشير بيده اليها عند ظهور دلائلها فأثبتوا صورته اظهارا لمزيتة ، وابقاء لذكره ، وتنبيهها على عظيم أمره ، ومن جملتها صور ملوكهم الذين من جملتهم كارلوس السابع (79) المعاصر لسيدنا الكبير سيدي محمد بن عبد الله (80) قدسه الله، فقد رأينا صورته شابا وكهلا وصور أولاده وزوجته وغيرهم من ذويه وقرابته ، وقد أداهم كفرهم الى جعل صور كصور الآدميين لها أجنحة يزعمون أنها صور الملائكة كما جعلوا صورة زعموا أنها صورة آدم عليه

(78) هو دون شك البحار الجنوى كريستوف كولومب (1451 - 1506) الذي اكتشف أمريكا لحساب اسبانيا يوم 12 اكتوبر 1492.

(79) بل كارلوس الثالث ابن الملك فيليبي الخامس ، ولد سنة 1716 وتولى ملك اسبانيا سنة 1759 وتوفي سنة 1788 واليه وجه السلطان سيدي محمد بن عبد الله عام 1179 (1766) سفيره احمد بن المهدي الغزال بقصد فكك اسارى المسلمين واسترجاع الكتب الاسلامية التي كانت باسبانيا .

(80) محمد بن عبد الله بن اسماعيل العلوي السلطان العبقري الجليل ، ولد بمكناس عام 1134 وبويع بفاس اثر الفراغ من دفن والده يوم الاثنين 25 صفر 1171 (8 نونبر 1757) وتوفي بين وادي يكم ووادي الشراط ليلة الاثنين 16 رجب عام 1204 (10 ابريل 1790) وحمل لداره برباط الفتح فدفن باحدى قباتها .

السلام عارى الجسد الا عورته فمستورة بشبه أوراق الشجر
وأخرى يزعمون أنها صورة حواء وغير ذلك كصور مريم وعيسى
رضيعا وشابا وقتيلا مصلوبا (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه
لهم) ، الى غير ذلك من الصور التى لا تحصى كثرة رأينا ذلك كله
فى دار معدة لتلك الصور وتعلم عملها .

ورأينا غير ذلك من المواضع ككنيستهم ومحل كتبهم ،
وقد وجدنا عندهم فيه من كتب المسلمين نحو العشرين مجلدا
من جملتها جزء من صحيح الامام البخارى بقلم مغربى ونفح
الطيب للمقرى بمطبعة باريس وغيرهما .

استقبال الملكة للسفارة

ولم نزل فى أيام الحداد عندهم وهى عشرة أيام بعد يوم الدفن،
تارة نتوجه لهذا المحل وتارة لهذا وتارة ننزه أنفسنا عن التوجه
لبعضها ! وانما نتوجه مساعدة لهم الى أن كملت، وكانوا وعدونا
بالملاقة مع سلطانتهم بعد تمامها فكتبنا لوزير الامور الخارجية
نستدعى منه تعيين يوم الملاقة وساعتها فعين لنا اليوم والساعة
وكان اليوم المعين هو التاسع عشر من يوم حلولنا بمدريد ، وهو
يوم الاحد 6 ربيع الأول، وقبل الساعة المعينة للملاقة معنا فيها
وجهوا لنا خمسة أكداش من الاربعة عشر التى رأيناها معدة
لركوب ملوكهم المتقدم ذكرها كل واحد منها يجره ستة من
الخيال ، فى غاية الجودة ، وكل ستة منها على لون واحد مموهة
آلاتها بالذهب وفرشها بالديباج، ومعها سائسوها لابسين ملابس
من أفخر ملابسهم، على هيئة خاصة بهم، ونحو الخمسين من رؤساء

العسكر الخيالة راكبين خيلهم، مصبلتين سيوفهم مصطفىين أمام
المحل الذى نحن فيه ، مرتقبين لخروجنا ، ومتأهبين لركوبنا .
وورد علينا قائد مشورهم ثم رئيس عسكرهم وكل منهما لابس
ما هو منتخب ، من الثياب الفاخرة المحلاة بالذهب ، فاستدعونا
للركوب والتوجه للغرض المطلوب ، فركبنا فى تلك الاكداش
نحن ومن معنا ، وواحدة منها فارغة تقتفى أثرنا ، زيادة فى
التعظيم لجانب سيدنا .

ولما ركبنا أوماً الخيالة بسيوفهم مسلمين علينا ، ثم
توجهنا بأجمعنا على هيئة عجيبة ، وكيفية بدیعة غريبة ، والعيون
ترمقنا ، والابصار شاخصة الينا وحيث قربنا لباب دار مخزنهم
وجدنا بفنائها طائفة من عسكرهم مصطفىين صفيين متقابلين ،
متشوفين لقدومنا عليهم ولما أقبلنا على أبوابهم شرعوا فى ترديد
ألحانهم بموسيقاهم ، حتى دخلنا الباب ، وتوارينا بالحجاب ،
ووصلنا الى درج متسعة ، تفضى الى أماكن مرتفعة ، فانتقلنا من
الاكداش للترقى فى تلك الدرج ، وقد صارت مع سعتها فى
غاية الضيق والخرج ، بمزاحمة رؤساء العسكر فى أطرافها
وقوفاً ، على قانون العسكر فى وقوفهم صفوفاً ، وقائد المشور
يقدمنا ، وعلى الطرق الموصلة للمراد يدلنا وبعد الترقى معه فيها
أفضى بنا الى أول صالة ثم للثانية واستوقفنا ثم دخل دوننا
لثالثة يستأذن علينا ثم أدخلنا، فاذا هى غاصة بالوزراء والحكام،
والرؤساء ومن هم العمدة فى دولتهم من الكبراء والعظماء
والسلطانة جالسة على سريرها والى جانبها سرير زوجها مغشى
بغشاء خفيف أسود يستدل بسواده على موت صاحبه ولباسها

أسود كذلك وجلوسها بجانبه وعن يسارها عدة من النساء ، هن عيال أولئك الرؤساء ، فأومأنا بأيدينا مسلمين عليها ، وحيث وصلنا لطرف المنصة التي بأعلاها سرير ملكها ، شرعنا فى قراءة مخاطبة هيأناها لملاقاتها تعزية لها فى زوجها وتهنئة ، وتأسفا على فقدده وتسلية ، وتجديدا لحسن المصارفة والمخاطبة ، وتأكيذا فى اتصال الصحبة والمعاملة ، وقد نقلت من العربية الى العجمية قبل الملاقاة ، ليفهم الحاضرون ما تضمنته تلك العبارات ، فقرأناها أولا بالفاظ عربية ثم قرأها ترجمانهم بالفاظ عجمية فأعجب بها الحاضرون وأشاعوها وأثبتوها فى ورقات أخبارهم وأذاعوها وما ضيعوها ، بل تناقلتها الركبان الى شاسع البلدان ، ونص المخاطبة :

« نعلم ونتحقق أن مولانا السلطان نصره الله ، يتغير ويتأسف غاية الاسف حين يصله خبر هذه المصيبة التى حصل لجميعنا الاسف والغيار الكثير وكادت القلوب تنقطع من أجلها ، فان كنت ضاع لك خير الرجال ، فان مولانا السلطان نصره الله ضاع له خير الاصحاب ، والاىالة (8I) المغربية ضاع لها المعاهد الصادق . »

« ولذلك جميع الايالتين خامر قلوبهم الحزن والاسف الكثير عليه ، ولم نقدر أن نحكى لك ما حصل فى قلوبنا من أجل ذلك ، من يوم وصولنا لحضرتكم الفخيمة الى هذه الساعة لكيلا

(8I) القطر وأصلها الولاية ، وهى من المصطلحات الادارية التى دخلت المغرب المستقل اثناء حكم الاتراك لشمال افريقيا .

يكثر حزنك وأسفك ، ولكن الواجب هو التسليم والرضا ، بما قدره الله وقضى ، ونرجو منه سبحانه أن يرزقك الصبر الكثير وأن يعطيك من الخير ما يسعد به الناس ، وقد قدمت لحضرتكم لتجديد ما بين الدولتين من الصحبة والاتصال ، وحسن المخالطة ، راجيا دوامها في المستقبل وتأكيدها كما كانت قبل وأننى أسعد حين وصولي للحضرة الشريفة بأن نعرف مولانا السلطان نصره الله بما عندكم من المحبة فى جانبه الشريف كما كانت لزوجك السلطان الفونسو المعظم والصحبة العظيمة الكامنة ، ونفرح لذلك لان لنا الاتصال الكثير معكم والمجاورة القريبة ، وسواحلنا وسواحلكم شئ واحد لا يفرق بينهما الا البحر الصغير مع مشاهدة الجانبين ، وتجارتنا مع أجناس آخرين لا يكون الكثير منها الا بواسطة بلاد اسبانيا . ومولانا نصره الله يشتهى أن تكون الصحبة بين الدولتين دائمة لا تنقطع ونطلب الله تعالى أن يسعد بك هذه الايالة الاصبنيولية حتى يكثر خيرها ويعم نفعها .

ولما ختمت قراءة تلك المخاطبة وعلمها من حضر ناول السلطانة وزيرها رقعة شرعت فى قراءتها فى الاثر ، ففهمها العارفون بلغتها ثم عرفنى الترجمان بجملتها ، فاذا هى متضمنة للجواب عن فصول مخاطبتنا ، وحسن الثناء على سيدنا ، واخلاص المحبة من زوجها واياته فى جانبه الشريف وقيامهم أتم قيام بما يوافق عظيم قدره المنيف ، وانها لكذلك وأعظم محبة وتعظيما لعلى جنابه المعظم .

ثم بعد ذلك قامت من محلها واقبلت الينا ، وسلمت تسليم متواضع محب علينا ، واظهرت بشرا وبشاشة وترحيبا ، وتوجهت بنا لمحل آخر غير الذى كنا فيه وكان متصلا به قريبا ، وهى تسألنا عن أمور شملها ذلك المحل من مغربنا ، وتعد بقضاء جميع مطالبنا ومثاربنا ، وقد وفّت بما وعدت به واجملت وخير ما يتحلى به الانسان الوفاء وقد فعلت .

وبعد موادعتها ابنا لمحل نزولنا فى غاية السرور ، وتيقنا انا بفضل الله وسعادة مولانا المنصور بالله عليهم فى غاية الظهور ، ثم لم نلبث الا سيرا قدر ما استرحنا وتوجهنا لمحل الوزراء تتيما للملاقاة وقصدا للمجازاة ، وبعد رجوعنا من عندهم قدم عندنا كل واحد منهم ، ولم نزل بعد ذلك فى قضاء المآرب وما حملناه من المطالب ، حتى كمل بحمد الله الغرض ، واستوفينا تيسير ما عرض ، واكرمنا بالتحف الفاخرة وقوبلنا بالجميل اول الامر وآخره .

ومدة مكوثنا هنالك لم نر ما يصدق ما يحكى عنهم من القوة العسكرية ، وغاية ما رأيناه من ذلك انا فى بعض تلك المدة كنا نرى ستة وثلاثين من مدافع الجر النحاسية بالآلاتها واقامتها تمر بالطرق التى ترى من المحل الذى نحن فيه كل واحد منها يجره هو وما يحتاج اليه ستة بغال ، وكل ستة مدافع معها طائفة من العسكر الخيالة وغيرهم من الطبعية من الخمسين الى الستين تكررت رؤيانا لها فى كل اسبوع نعم بغالها

والخيل فى غاية الجودة ، ورأينا من العسكر يوم الملاقاة نحو
الالفين لا غير ، اللهم الا ان يكون مفرقا فى مدنها وبلاداتهم ،
فان تعددها يؤذن بالكثرة ولكنهم ليسوا فيها كغيرهم غاية ما
ينقل عنهم ان عندهم سبعين الفا قائمة، وعددا كملت ايام خدمته
فسرح الى وقت الحاجة اليه .

السفر الى قرطبة

وكانت ايام مقامنا سبعة وعشرين يوما ، ثم
سافرنا فى (بابور البر) ليلة الثلاثاء منتف ربيع الاول
بعد العشاء قاصدين قرطبة (82) أعادها الله دار اسلام ، بجاء
النبي عليه الصلاة والسلام ، ومرادنا منها رؤيا مسجدها الذى
قل نظيره ، فمررنا فى طريقنا اليها على عدة مدن وقرى منها ما
كان مروورنا بجانبها ، ومنها ما كنا نراها على بعد من محل
مروورنا وانما نعرفها ليلا بتعدد الضوء فيها لان الضوء فى جميع
مدنها يبقى من الغروب الى قرب الشروق فتجد من يمر فى أزقة
مدنها كأنه يمر فيها نهارا لتعدد الضوء فيها واتصاله .

(82) Cordoba مدينة اسبانية اندلسية عتيقة تقع الى الجنوب الغربى
من مدريد بينها وبين اشبيلية على ارتفاع 100 م ف س ب خلف الضفة اليمنى
للوادي الكبير . وحولها البطاح الخضراء المغطاة بالحبوب والكروم ، وغابات
الزيتون وحدائق البرتقال والليمون ، والمراعى الجبلية الكثيرة الكلا . أسسها
الفنيقيون ثم أصبحت أغنى المراكز الرومانية باسبانيا ولما فتح المسلمون
اسبانيا أصبحت قاعدة الخلافة ومنبع الثقافة ، وظلت كذلك حتى بعد زوال
الخلافة الاموية وقيام ملوك الطوائف وحكم المرابطين والموحدين وقد سقطت
عندما بدأت الدولة الموحدية تضعف فى يد فرديناندو الثالث الملقب بالقديس
ملك فشتالة يوم 23 شوال عام 633 (29 يونيو 1236) .

وكان وصولنا لقرطبة وحلولنا بها فى الساعة الثانية عشرة نهارة من اليوم المذكور فتلقانا حاكمها واجمل فى الأدب والترحيب وركب معنا فى اكداش جاء بها لركوبنا فتوجهنا لمحل النزول وما لبثنا فيه الا قدر ساعتين ريثما توضحأنا وصلينا واكلنا وتوجهنا للمسجد (83) المذكور فاذا هو من أعظم المساجد طولا وعرضا مرتفع على سوارى من الرخام كلها ، وبين كل ساريتين قوسان ، احدهما اعلا من الآخر ، ويمينهما فصل فارغ غير متصل البناء قيل ان عدد سوارى المسجد المذكور كانت اربع عشرة مئة سارية ، وقد أخذ من اطراف المسجد اماكن لسكنى رهبانهم فاخفا البناء ما ادخل فيها من السوارى والابواب وبقى على ما قالوه ثمانمئة سارية ، ولم نجد فسحة لعددها واستيعابها لازدحام النصارى وضيق الوقت لانهم ذكروا انهم يصلون فى آخر الساعة الثالثة فى محل من المسجد جعلوه كنيسة لهم ، وقد قصدنا محل المحراب من المسجد فوجدناه مصونا محفوظا بشباك من حديد من جهاته الثلاث ، ثم فتحوا لنا بابه ودخلنا اليه وأوقدوا الشمع لمشاهدة كيفيته وكتابته، فرأيناه فى غاية

(83) اسس هذا المسجد فوق بقعة صخرية تقع فى نهاية جنوب غربى قرطبة على مقربة من قنطرة فوق الوادى الكبير من انشاء العرب ايضا . وتحيط الدروب الضيقة به من جوانبه الاربعة . بدأ بناؤه عام 170 على يد عبد الرحمان الداخل الاموى ، الذى أراد ان يكون اعظم مساجد الاندلس ولكنه توفى قبل اتمامه فأتمه ولده هشام . وأنشأ به منارته الاولى واستمرت فيه الزيادات بعد ذلك . وعبد الرحمان الناصر هو الذى بنى منارته الجديدة ، كما ان ولده الحكم المستنصر هو الذى بنى محرابه الثالث فى مدة أربعة أعوام ، ويشغل هذا المسجد مسطحا كبيرا يبلغ طوله 180 م وعرضه 135 وبذلك تبلغ مساحته 24300 م ويبلغ عدد سواريه 1400 وقد حول النصارى هذا المسجد الفريد الى كنيسة جامعة مثلما فعلوا بجبل المساجد الاسلامية اظهارة لعز النصرانية .

الاتقان ، يدل على ما كان عليه ملوك الاسلام من ضخامة الملك ورفيع الشأن ، وما كان عليه حال السلف المهتدين ، من الاعتناء باماكن الدين ، حاز من الضخامة اعلاها واجملها ، ومن المحاسن تفاصيلها وجملها ، ترصيعا وتنميقا وتمويها بالذهب الابريز ، شأن ما يعظم به الشيء الرفيع العزيز ، وعن يمين المحراب كتابة فى نقش الجبص مموهة كذلك قوله تعالى : (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله) وعن يساره (أمر ببناء هذا المحراب المستنصر بالله(84) الحكم امير المومنين عام اربعة وخمسين وثلاثمئة) وبدائرة المحراب بداخله : (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم ، الآية وقوله تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) . . والفينا بوسط الشباك محلا مرتفعا عن الارض سألنا عنه فأخبروا أنه قبر بعض عظمائهم دفنوه هنالك، وبوسط المسجد فى محل الثريا الوسطى قبة كأنما خرج منها العملة حين دخولنا اليها مرصعة بتزويق الجبس والطلاء بالذهب الشديد اللمعان ذكروا أنها كانت مستورة بالبناء لا يتوهمون أن وراءه شيئا ولما فتحوها قريبا وجدوها على ما

(84) الحكم بن عبد الرحمان الناصر بن محمد بن عبد الله المروانى الخليفة الاموى الاندلسى الملقب بالمستنصر بالله ، ولد بقرطبة عام 302 وولى الخلافة بعد ابيه عام 350 وتوفى مفلوجاً بقرطبة عام 366 .

وصفناه ، ورأينا فى ناحية من نواحي المسجد فى طرفه كنيسة لهم
التي اقتطعوها منه وفيها تصاورهم ومحل خطبتهم وما يتعبدون
به ويتقربون به من أصنامهم ولم يبقوها على ما كان عليه ذلك
المحل من شكل بناء المسجد ، بل نقلوها لاشكال كنائسهم فى
أبنيتهم لها ، ودخلنا لمحل بجانبها فوجدناه محل جمع ذخائرها
وما يهدى اليها ويحبس عليها ، وفيه العدد الكثير من أنواع
حسكات (85) الذهب الخالص منها الكبير جدا والمتوسط والصغير ،
ومنها ما رصعت بأحجار اليواقيت ، وفيها صليبهم ومباخر رفيعة
على كفيات وأشكال مختلفة ، وغير ذلك من الذخائر والتصاوير
الذهبية ، جعل الله جميع ذلك غنيمة للمسلمين بجاء سيد
المرسلين ، وخرجنا من المسجد المذكور لصحنه وقد كاد أن
يكون على قدر المسجد وقد غرس فيه من أشجار النارج ثمانية
وأربعون ونخلتان بين كل شجرة ومجاورتها نحو عشر خطوات ،
وهو منقسم نصفين يمينا ويسارا والمحل الذى هو فاصل من
الجهتين مقدار عشرين خطوة عرضا لا غرس فيه وهو محل
المرور ، والمغروس بالاشجار محجر لا يمر فيه أحد ودائرة كل
جهة من أشجار النارج محصبة ، ولم تبق بهذا المسجد صومعة
بل جعلوها محل ناقوسهم ، وبدلوا أعلاها بما يناسبهم ، ثم
صعدنا فى درج باب المسجد الذى دخلنا منه ولم نر من أبوابه
غيره ولعل أبوابه شملتها الأماكن التي اقتطعوها منه ، وكما

(85) ج حسكة : حاملة الشمع وتكون من نحاس ، شمعدانة .

أخفت ما كانت مشتملة عليه من السواري أخفت ما وافقها من الابواب ، وقد وجدنا هذا الباب من الابواب العظيمة المغشاة بالصفير المحكم الصنعة الذي لا شبيه له فى عمل التسطير ، والنقش فيه بأنواع التزويق الذى ليس له نظير ، وهو من صناعة أهل الاندلس ، وقد ضقنا ذرعاً حيث رأينا ما رأينا من استيلاء الكفار على أماكن المسلمين ومساجدهم وتصرفهم فيما أنفقت فيه ذخائرهم ، وشاهدنا من تصرفات الاقدار ما آل اليه أمر هذا المسجد العظيم المقدار ، من نقله من ايدى المسلمين لأيدى الكفار ، وقد طالما تليت فيه آيات القرآن العظيم وقرئت فيه احاديث سيد المرسلين ، ودرست فيه علوم الدين ، فليبك الباكون عليه من غير حصر ولا عد ، والله الامر من قبل ومن بعد ، وقد اثنيينا راجعين لمحل نزولنا ونار الاسف تتوقد فى أفئدتنا ومدة بقاء قرطبة بيد المسلمين 544 سنة فقد كان فتحها فى شوال سنة 92 على يد مغيث (86) من الداخلين الى الاندلس مع طارق (87) وقدمه لفتح قرطبة ففتحها فى التاريخ

(86) مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني المعروف بمغيث الرومى ، وليس روميا على الحقيقة . نشأ بدمشق ووجهه عبد الملك بن مروان الى الاندلس غازيا مع طارق بن زياد فقدمه طارق لفتح قرطبة فى 700 فارس فافتتحها وأسر ملكها ، وعاد مع طارق وموسى ابن نصير سنة 96 هـ الى دمشق ، وخدم سليمان بن عبد الملك ، ثم عاد الى الاندلس ، ولا يعرف عنه شيء بعد ذلك ، الا ان نسله كان فى قرطبة ، والظاهر انه توفى بها .

(87) طارق بن زياد الليثى بالولاء البربرى الاصل ، فاتح الاندلس ، أسلم على يد موسى بن نصير فكان من أشد رجاله ، ولما فتح موسى طنجة ولى عليها طارقاً عام 89 فأقام بها الى عام 92 وذهب على رأس الجيش الاسلامى الى الاندلس فافتتحها . فغار منه موسى وعاقبه بالعزل من القيادة ، ثم أعاده الوليد بن الملك فعاد طارق الى الغزو . ثم استدعاه الوليد الى الشام فقصده مع موسى سنة 96 هـ واقوال المؤرخين مضطربة فى خواتم أعماله بعد ذلك . توفى عام 102 هـ .

المذكور، ثم فتح الكنيسة التي تحصن بها ملك قرطبة بعد حصار ثلاثة أشهر في محرم سنة 93 ثم كان استيلاء النصارى عليها يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة 636 على ما ذكره العلامة المقرئ (88) في نفح (الطيب) ، ولم نتوجه بقرطبة لمحل آخر منها الا لمسجدها الذي ذكرناه .

الذهاب لغرناطة

ومن الغد توجهنا منها لغرناطة (89) ركبنا اليها في (بابور البر) أيضا في الساعة الثامنة من صبيحة يوم الاربعاء ومررنا في

(88) أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيى المقرئ القرشي التلمساني نزيل فاس حافظ المغرب وجاحظ البيان ، الفقيه المفتي ، الكاتب الشاعر الاديب ، ولد بتلمسان عام 986 وأخذ عن شيوخها ولا سيما عمه ابا عثمان سعيد المقرئ ، ورحل الى فاس عام 1009 في زمان السلطان مولاي احمد المنصور الذهبي وزاره بمراكش عام 1010 وله ألف كتابه الحافل (روضة الآس ، العاطرة الانفاس ، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس) الذي ظل مقبورا حتى عثرت عليه في السنة الماضية بالخزانة السلطانية بفاس ، وهو الآن تحت الطبع بالمطبعة الملكية، وبفاس أخذ المقرئ عن القصار وابى النعيم وأبى العباس احمد بابا السوداني واحمد بن عمران وغيرهم ، ثم عاد الى تلمسان فأقام بها مدة قصيرة ورجع الى فاس فاستقر بها بصفة نهائية وتولى الفتوى والخطابة بجامع القرويين الى ان اختل أمر المغرب بسبب تنازع ابناء المنصور الذهبي على الملك فسافر الى المشرق في أواخر رمضان عام 1027 وظل يتنقل ما بين مصر والشام والحجاز الى ان وافته المنية بمصر في جمادى الاخرة عام 1041 ودفن بمقبرة المجاورين . وللمقرئ فضل عظيم على الادب المغربي - الاندلسي بما ألف من كتب قيمة مثل (نفح الطيب) و (أزهار الرياض) وغيرها .

(89) تقع غرناطة في جنوب اسبانيا على بعد 70 كلم من ساحل البحر المتوسط وارتفاع 689 م ف س ب في سفح جبال سييرا نفادا وهي مدينة قديمة معروفة من العصر الروماني ولكنها لم تزدهر الا تحت الحكم الاسلامي سيما عند ما اتخذها ملوك بنى نصر عاصمة لهم وانحازت اليها فلول المسلمين الفارة بدينها وشرفها امام الزحف الاسباني المسيحي . ولا تزال الى الآن رغم مرور خمسة قرون على سقوطها بيد النصارى اهم مراكز الآثار الاسلامية بالاندلس . وقد كان سقوطها في يد الملكين الكاثوليكيين فرديناندو وزوجته ايسابيلا يوم 2 ربيع الاول عام 897 الموافق 2 يناير 1492 على شروط التزم الاسبانيون بالوفاء بها ثم نكثوها وبسقوطها انتهى الحكم الاسلامي بالاندلس بعد ما دام ثمانية قرون ونيفا .

طريقنا اليها على عدة مدن من جملتها (أنطكيرا) (90) (وليبنيه) (91) وطور (92) (وطكون93) (وأيور 94) (وأبينوس95) (وأطارفي 96) ، ومنها لغرناطة وقد وصلناها بعد الزوال بساعتين ، وتلقانا بالقرب من ديارها ، فى محل وقوف البابور منها حاكمها وهش وبش ، وسلم علينا تسليم المحبة ، وأظهر الاعتناء والصحبة ثم صحبتنا فى الاكداش المعدة عنده لركوبنا الى محل نزولنا وهو يحادثنا حديثا يثير السرور ، وتشرح له الصدور ، ويسألنا عن طريقنا وهل حصلت لنا مشقة فى سفرنا ، ويذكر لنا ما بلغهم عن ملاقاتنا ويستحسن ما ذكرناه لسلطانهم فى مخاطبتنا ، الى غير ذلك مما تستحسنه الاسماع وتميل اليه الطباع ، ولما كنا فى الطريق وقد شرعنا فى الصعود فى عقبة تفضى لمحل النزول ولقصة غرناطة التى هى الحمراء أخبرنا أن تلك العقبة تسمى عقبة غمارة ، ومعلوم أن غمارة قبيلة من قبائل مغربنا فلعلها كانت محل سكنى فريق منهم وبها دار من جملة دورها لما قربنا منها ذكر لنا أنها تسمى دار الشرع كانت محل قضاة المسلمين، وهى عقبة طويلة جدا أولها دور ووسطها وآخرها غابة ملتفة الاشجار كأعظم ما يكون فى غابات مغربنا ، ولما سألنا عن محل مقابر المسلمين ، ذكروا لنا أن تلك الغابة كانت مقبرة لهم قبل أن تكون غابة ولقد وقاها الله وحرسها من مواطىء المشركين

(90) Antequera تقع غربى غرناطة على بعد 98 كلم منها .

(91) Baena تبعد 61 كلم عن قرطبة الى الجنوب الشرقى منها .

92 - 93 - 94 - 95 - 96) لم نستطع تحقيق مواقع هذه المدن بين قرطبة وغرناطة ولعل المؤلف حصل له غلط أثناء تقييدها ، أو خطأ فى كتابتها .

فيها بسبب ذلك ولما وصلنا لمحل النزول بأعلاها ذكر لنا أنهم اختاروا نزولنا فيه لقربه من الحمراء ، وهو محل جيد غاية فيه أماكن متعددة للنزول فيها، وفيها ما يحتاج اليه الانسان ويتوقف عليه ، وبعد تعيين محل النزول منه وتمكين كل منا مما يناسبه ، طلب منا المقام غد ذلك اليوم للاستراحة، ولمشاهدة الحمراء وأماكنها لما عنده من أمر مخزنه بذلك وطلب منا تعيين الوقت الذي نتوجه فيه اليها فعيناه له وانصرف ، ثم وجهوا لنا ما أعدوه مؤونة لضيافتنا .

زيارة الحمراء

وفى الوقت المعين من الغد ورد علينا الحاكم وأفراد من أعيان النصارى معه ، بقصد التوجه معنا الى الحمراء (97) فتوجهنا راجلين صحبتهم لقربها من محل نزولنا ،

(97) الحمراء أجمل الآثار الاسلامية الباقية بالاندلس لا بغرناطة وحدها ، وهى مبنية على هضبة مرتفعة يبلغ طولها 736 م وعرضها نحو 200 م ويحيط بها سور ضخيم لا تزال أجزاء كبيرة منه مماثلة الى اليوم . ولم تكن الحمراء فى الاصل الا قسبة صغيرة لغرناطة يسكنها الحاكم وتقيم بها الحامية . وباديس بن حبوس زعيم البربر بالاندلس هو الذى بنا سورها فى أول القرن الخامس الهجرى على اثر قيام ملوك الطوائف ، كما انشأ بها قصراً وادارات حكومية . ولما استولى محمد بن الاحمر النصرى على غرناطة سنة 635 بدأ شأن قسبة الحمراء يعظم ، لانه اتخذها قاعدة لملكه وجلب اليها الماء وانشأ حولها الأبراج، وفى اواخر القرن السابع انشأ محمد بن محمد بن الاحمر ثانى ملوك بنى نصر الملقب بالغالب بالله الحصن الجديد والقصر الملكى وانشأ ولده محمد الى جوار القصر مسجداً هو الذى حول الى كنيسة سانتا ماريا ، ثم جاء السلطان ابو الوليد اسماعيل بن نصر فزاد فى القصر وفى تجميله ، ولكن الحمراء تدين بروعتها وفخامتها للسلطان ابي الحجاج يوسف بن الاحمر الذى بنا بها جل الاجنحة والأبهاء الملوكية وأغدق عليها من روائع الفن والزخرف ما يحير العقول ويملك الالباب .

بل هو متصل بسورها فما مشينا الا يسيرا حتى دخلنا على باب من أبوابها كأبواب شالة (98) بكيفيته وقدمه، مكتوب أعلاه : (أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة، أسعد الله به شريعة الاسلام ، كما جعله فخرا باقيا على الايام مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف (99) ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافاً الله فى الاسلام صنائعه الزاكية ، وتقبل أعماله الجهادية ، فشيد ذلك فى شهر المولد المعظم من عام 749 ، جعله الله عزة واقية وكتبه فى الاعمال الصالحة الباقية) .

وعلى أعمدة هذا الباب كتابة نصها : (الحمد لله لا اله الا الله محمد رسول الله ، لا قوة الا بالله) .

ثم مشينا يسيرا فألفينا بابا آخر ليس كالذى قبله فى الارتفاع سألنا عن اسمه فذكروا أنه يسمى عندهم الآن باب الشراب وأما اسمه على عهد المسلمين فانه مجهول عندهم مكتوب بأعلاه نقشا فى الحجارة ما نصه : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، انا فتحنا لك فتحاً مبيناً الى قوله تعالى : (وينصرك الله نصراً عزيزاً . عز لمولانا أبى عبد الله الغنى بالله)

(98) بالرباط ، وباب الشريعة الذى يشير اليه المؤلف يرتفع 15 م ووراءه محراب فيه تمثال لمريم العذراء ، ولوحة رخامية أشير فيها الى حصار غرناطة من طرف الملكين الكاثوليكين وتسليمها لهما فى ثانى يناير عام 1492 .

(99) يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن الاحمر النصرى أمير المسلمين بالاندلس ولد فى شهر ربيع الثانى عام 719 وتولى الملك بعد أخيه محمد بن اسماعيل بوادى السقايين من ظاهر الجزيرة الخضراء يوم الاربعاء 13 ذى الحجة عام 734 واغتيل يوم عيد الفطر عام 755 .

ثلاثا : وفى الجانب الشرقى منها (الملك الدائم . والعز القائم .)
وفى جوانب الكوة منها : (اليمن والاقبال ، وبلوغ الآمال ، وما
شاء الله ولا قوة الا بالله .)

ثم توجهنا منها لمحل يسمى برج محمد أسفله فيه خراب
مكتوب ببابه :

يا تقى يا أملئ أنت الرجا أنت الولي
فبالنبى المرسل اختم بخير عملى

وقد سعدنا فى عدد من درجه أفضت بنا الى سطح مرتفع
غاية ترى منه جميع دور غرناطة، كما ترى دور مدينة فاس من قلل
بنى مرين، وقد أرونا من هناك جانبا من المدينة ذكرنا أن هناك
كانت دور المسلمين وأما كنهم وسألنا عن مساجدهم فذكروا
أنها لم يبق لها أثر ، وأشاروا الى كنيسة ذكرنا أنها كانت من
مساجد المسلمين وأما غير ذلك من المدينة فقد كان محلا
لسكنى غير المسلمين ومزيديا فيها وعند مرورنا بأزقتها وطرقها
كنت أتأمل فى أبواب الدور وأبنيتها فأجد أكثرها مناسبا لأبواب
دور المسلمين وقريبا من بناءاتهم بمغربنا حاطه الله ، وحرسه
ووقاه .

ثم توجهنا لمشاهدة قصر الحمراء ، فدخلنا الدار (١٠٠)
المذهبة من غير بابها القديم، لان محله وما حوله أنشأ فيه كارلوص
أحد ملوك الاصبنيول دارا بنى أسفلها وصده الله عن اتمامها، وما

(١٠٠) فى هذه الدار اخذت صورة لأعضاء السفارة المغربية ، وهى المنشورة
فى أول هذا الكتاب .

زالت كذلك الى الآن، وانما دخلنا اليها من باب صغير أحدثوه لها،
وحيث دخلنا اليها وجدناها متسعة ذات سوارى من رخام
وأقواس مرتفعة ، أبدع الجباصون فى تحليلتها بأنواع التزويق
الذى يستحسنه البصر ويتمتع برؤيته ويتعجب من لطيف
صنعتة ، وقد اشتملت هذه الدار على عدة قباب أجملها وأرفعها
قبتان عظيمتان متقابلتان أفرغ النجارون فيهما عمل صنعتهم
فيما هو من شأن عملهم ، كما أفرغ أصحاب عمل الزليج
كذلك فيما هو من شأنهم ومباحات رصعت أسفل جدرانها
بالزليج المنتخب . . وأعلاها بتزويق الجبص المحلى بالذهب ،
وقد حليت جميع جدرانها بذلك ، ودار معها حيثما دارت منها
المسالك ، كما حليت برقم ألفاظ وأبيات تفصح عن عظيم شأن
منشئها بما تضمنته من فصيح العبارات ، منقوشة فى حرام
فاصل بين الزليج والجبص وذلك مما يستحسن وتنشرح به
النفس ، ومثبت بعضها فى زوايا تلك الاشكال ، البديعة الشكل
والمثال ، ومن الأبيات منها ما نصه :

تبارك من ولاك أمر عباده
وأولى بك الاسلام فضلا وأنما
فكم بلدة للكفر صبحت أهلها
وأمسيت فى أعمارهم متحكما
وطوقتهم طوق الاسار فأصبحوا
ببابك يبنون القصور تخدمها

وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة
ففتحت بابا كان للنصر مبهما
ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا
وصيرت ما فيها لجيشك مغنما
ولو خير الاسلام فيما يريده
لما اختار الا أن تعيش وتسلمما

وهذه الابيات كلما كمل نقشها فى مباح من المباحات
أعيدت كتابتها مرة أخرى ، وان كان المحل المحلى بها بغيرها
أخرى ، ومما هو مرقوم فى أشكال الجبص وزواياه : (عز لمولانا
أبى عبد الله ، والنصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبى عبد
الله أمير المسلمين) والجملة المتصلة مكررة غير ما مرة . (ولا
غالب الا الله ، والملك لله ، والعز لله ، وبركة محمد) بعض ذلك
بالخط الكوفى ووسط هذه الدار يسمى بصحن الرياحان، وبصحن
البركة الكبيرة ، لأنها بوسطها صهريج مستطيل ممتلىء ماء ،
وجانباه الايمن والايسر قسم كل منهما أثلاثا ، الثلث الوسط
منهما مغروس بالريحان مشتبك بعضه ببعض ، متصل غاية
الاتصال، مستقيم كأنه سور بناء كلما برز عن استقامته شئ منه
قص وأزىل، فتراه دائما مستقيما من جانبيه، وكذلك من أعلاه،
وبه يسمى صحن الرياحان، وانما برز منه أشجار ليم مغروسة فى
وسطه ولارتفاعها عنه وطولها لم تؤثر فيه بل زادت فى استقامته،
ومن وسط مباح من مباحات هذه الدار دخلنا لدار الآساد ، وهى
دار فى غاية الحسن والبهاء ، رفيعة الشكل والبناء ، مستطيلة
اشتملت على قبتين متقابلتين، وبأزاء كل باب منهما قبة على شكل

بهى، وعمل سننى، مرتفعة الشكل، عديمة المثل، مرتفعة على سوارى
من رخام من جهاتها الثلاث، وكان فى وسط كل منهما خصة ماء
دل على ذلك محلها وساقية بوسط الدار لجريان الماء فيها منهما
وقد رأينا نظيرتى هاتين القبتين بصحن القرويين، لا فرق بينهما
وبوسط صحن هذه الدار خصة كبيرة مرتفعة على ظهر صور اثنى
عشر أسدا وبوسطها خصة أخرى صغيرة مرتفعة عنها يخرج الماء
منها ومن أفواه تلك الأسود بقوة، عايناه كذلك، وتسمى عين
عائشة، ودائرة هذه الخصة الكبرى مكتوب فيها نقشا فى رخام
الخصه بارزا عنها :

تبارك من أعطى الامام محمدا
مغانى زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع
أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها
تحلى بمرفض الجمان النواحيا
بذوب لجين سال بين جواهر
غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد
فلم ندر أيا منهما كان جاريا
ألم تر أن الماء يجرى بصحنها
ولكنها سدت عليه المجاريا

كمثل محب فاض بالدمع جفنه
وغص بذاك الدمع أن خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة
تفيض الى الأساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة أذ غدت
تفيض الى أسد الجهاد الاياديا (IOI)
وفي كوة أحد بابي القبتين مكتوب في جبص مموء
بالذهب :

كل صنع أهدى الى جماله
وحباني بهاء وكماله
من رآنى يظننى كلذاتى
تخطب البرق تبتغى ان تناله
فاذا مبصرى تأمل حسنى
أكذب الحسن بالعيان خياله
ورأى البدر من شفوف ضيائى
حل ضوء السعود منى هاله

(IOI) الأبيات للشاعر الاندلسى الفحل محمد بن زمرك من قصيدة له فى وصف الحمراء ، وقد أغفل المؤلف - مما هو مكتوب منها فوق صحن الخصة التى تحملها الاسود - الابيات الثلاثة التالية :

عداها الحيا عن ان تكون عواديا	فيا من رأى الأساد وهى روابض
تراث جلال يستخف الرواسيا	ويا وارث الأنصار لاعن كلاله
تجدد أعياداً وتبلى اعاديها	عليك سلام الله ، فاسلم مخلصاً

وفى مقابلتهما :

لست وحدي قد أطلع الروض مني
عجبا لم تر العيون مثاله
ذاك صرح الزجاج من قد رآه
ظنه لجة تروع وهاله
كل هذا صنع الامام ابن نصر
حرس الله ملكه وجلاله

ومكتوب في أخرى ما نصه :

أنا مجلاة عروس
ذات حسن وكمال
فانظر الابريق تدري
فضل صدقي في المقال
واعتبر تاجي تجده
مشبها تاج الهلال
وابن نصر شمس فلك
في ضياء وجمال
دام في رفعة شان
آمنا وقت الزوال (102)

(102) لو قال راقبا أفق المعالي لكان أحسن واسلم (مؤلف) .

وكان ما تضمنه الشطر الاخير من هذه الابيات - وان كان مراد الشاعر به وقت زوال الشمس عن كبد السماء - هو ما وقع بأبى عبد الله سلطان غرناطة الذى أخذت من يده وبه انقرضت دولة الاسلام بالاندلس فقد أسلمها للطاغية بعد قتال شديد ، وحصار مدة منع المسلمون فى آخرها من وصول الاقوات اليهم وضعفوا بسبب ذلك عن مقاومة العدو، فصالحوه على شروط ودخل البلد صلحا وخرج منها أبو عبد الله للمغرب آمنا وقت زوال ملكه ، واذا اراد الله انفاذ أمر سبق فى علمه فلا مرد لأمره، ولا معقب لحكمه، لا اله الا هو رب العالمين ، ووراث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وكان ذلك فى ثانى ربيع الاول سنة 897 .

ثم ان النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة، الى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة 904 بعد أمور وأسباب ليس هذا محل ذكرها .

وقد رأينا محالا آخر بالحمراء غير ما شرحناه ، غير أنها لما لحقها من الخراب لم نلتفت لتقييدها واكتفينا بما ذكرناه ، وبعد الوقوف على تلك الاماكن واستيعابها، خرجنا منها متأسفين على عظم مصابها، وتوجهنا منها لمحل النزول، ونحن بين مسرور ومحزون ، موحدين لمن ملكه لا يزول .

الذهب لاشبيلية

ثم من الغد ارتحلنا لاشبيلية (103) محل ملوك بنى عباد ، فمررنا بشرفها الذى شرفت به تلك البلاد اذ هو بسيط فسيح تميل النفوس اليه وبه تستريح ، اشتمل على آلاف من الضياع حسنة المنظر كثيرة الانتفاع ، كلها تين وزيتون وعنب ، مغروسة على صفة فائقة ، صفوفها مستقيمة متناسقة ، وبين كل صفين من أشجار الزيتون صف من دوالى العنب أو بياض ينتفع به ويستعمل فيما يصلح له ويناسبه ، وليس ذلك مما أحدثه النصارى بعد استيلائهم على أرضها ، بل كان كذلك وقت سكنى المسلمين بها .

(103) اشبيلية احدى القواعد الكبرى للاندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية ، تقع بسهل فسيح على الضفة اليسرى للوادي الكبير بين قرطبة وقادس ، على بعد 138 كلم من الاولى ، و 153 من الثانية . وهى من أجمل المدن الاندلسية واكثرها روعة وسحراً ان لم تكن أجمل مدن اسبانيا على الاطلاق . انشئت فى عصر موغلة فى القدم وكانت تعرف فى العصر الرومانى باسم اشبالى او هيسبالييس ومنه اشتق اسمها الحالى ، وما زال امرها يعظم حتى اتخذت قبل الاسلام عاصمة لاحدى ممالك الغوط . ولما دخل العرب الاندلس استقر بها جند الشام فأطلقوا عليها اسم حمص لما لمسوه من شبه بينها وبين المدينة الشامية الشهيرة ، وذاع صيتها على الخصوص ايام ملوك الطوائف حيث اتخذها بنو عباد عاصمة لامارتهم . وايام المرابطين والموحدين حيث صارت من أكبر قواعد جندهم وادارتهم ، ومن أكبر آثارها الاسلامية اليوم مسجد العظم ذو الصومعة الشهيرة (لاخيرالدا) الذى أنشأه الخليفة المغربى ابو يعقوب يوسف بن عبد المومن بن على الموحدى فى شهر رمضان عام 567 اثناء اقامته بها . وقد سقطت اشبيلية فى يد النصارى اثناء ضعف الدولة الموحدية يوم 27 رمضان عام 646 (23 نونبر 1248) بعد سقوط قرطبة باثنى عشر عاما وصارت منذ ذلك التاريخ الى اوائل القرن السادس عشر دار الملك فى قشتالة . وهى اليوم مدينة متبحرة العمران كثيرة السكان يزيد عدد القاطنين بها على نصف مليون نسمة . وبها جامعة علمية ، ومرساها من أهم المراسى النهرية فى اسبانيا .

فقد ذكر فى (نفح الطيب) عند ذكر اشبيلية أن فى غربها رستاقا عظيما مسيرة عشرين فرسخا يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون ، ثم قال وهذا هو المسمى بشرف اشبيلية وتمتاز بلاد المغرب كلها بهذه الاصناف منه ، نعم لا يمكن أن يكون ذلك باقيا بنفسه على حاله مع طول المدة من لدن استيلاء النصارى عليه الى الآن، بل بدلوا وغيروا وزادوا ونقصوا غير أن غالب زيتون تلك الارض قصير جدا وليست له فروع كثيرة ، فالشجرة الواحدة من زيتون أرضنا تعادل ست أشجار أو ثمان من زيتون أرضهم ، ولا يقال أنها ليست كذلك لصغرها ، وعدم بلوغ حد اطعامها ، لانا كثيرا ما نجدهم يقطعون بعض عروشها لتتقوى مع غلظ أصلها الذى يستدل به على قدمها ، ومع ذلك فغلال أكثرها كورقها .

وقد وصلنا لاشبيلية ، فاذا هى من أجل المدن وأحسنها منظرا وهى على نهر عظيم متبحر تجرى فيه السفن بالبضائع وسقا ووضعاء، وقد رأينا (البابورات) مع عظمها تمر فيه ومرساة بمحل منه ، وبداخل المدينة حوانيت يبهز العقول بهاؤها ، ويغشى العيون سناؤها وأسواق بدیعة ، محتوية على تحف رفيعة ، ودور أبوابها قريبة من أشكال أبواب دور مغربنا وطرق مثلها كمثل طرقنا الا ما هو منها فى الوسط ، فانها ليست على هذا النمط ، بل هى فى غاية الاتساع، واتصال الاستقامة وعدم الانقطاع ، ان مرت الاكداش فى أزقتها بين الدور لا تجد متسعا لمرور ثانية معها ولا لای جهة تنحرف وتدور، وان مرت فى وسط البلاد ، فتتوجه على تعددها وفق المراد ، وقد لقينا حيث

وصلناها حاكم عسكرها مع عسكره ، وقابلنا بما ينبغي ترحيبا
وبشاشة أكثر من غيره ، وتوجه معنا للمحل الذى أعدوه لنزولنا
فألفينا العسكر ببابه منتظرا لوصولنا ، وحيث أقبلنا عليهم ،
واجهونا بسلامهم ، وشرعوا فى تصويت ألحان أعجميتهم بأكبر
موسيقاتهم ، حتى دخلنا للمحل ونزلنا فيه فى المحل الأفضل ،
وورد حاكم البلد عندنا وخليفته للسلام علينا والتهنئة بقدومنا ،
والباشادور بطنجة أيضا لكونه من أهل هذا البلد وهى محله ،
وبها قراره وداره وأهله ، وقد كان بعد تمام قضاء أغراضنا
بمدريد توجه لداره قبلنا وأبقى من يقوم مقامه
معنا ، وكان مقامنا باشبيلية ثلاثة أيام ، استرحنا
يوم دخولنا إليها ، ثم توجهنا لرؤية أماكنها فمناها قصر
المعتمد بن عباد دخلنا إليه وطفنا بأماكنه ، وقد غير القوم
محاسنه البهية ، وجدته السنية ، ولم يبق منها الا المشاهد
للمعتبر المشاهد ، على أن بقايا محاسنه مع قدمها عزيزة المثال ،
لا تنال الا بعظيم النوال ، وقد دخلنا إليه من باب مكتنف بين
بناء مرتفع طريقه تفضى مع طولها الى فضاء متسع كأنه مشور
محتف بأماكن بها مسور ، وبوسطه عن يسار الداخل إليه باب
ذو مصراعين كهية أبوابنا ، بدور أيمتنا وأكابرنا ، فى أسطوان
تدل محاسنه عما بعده ، وينفق الانسان فى نيل مثله ما عنده ،
وقد أفضى الى دار عظيم بناؤها ، مرتفع سناؤها ، على شكل
عجيب ونموذج غريب ، يقرب شبهها بأرفع دور المغرب ويحار
فى وصفها اللسن المعرب ، مشتملة على قباب يتصل البعض
منها البعض ، ومع قدمها لم يتداع شئ منها للسقوط ولا احتاج
الى نقض ، بل كلما احتاج شئ منها لذلك أعيد كما كان ، لتبقى

محفوظة على طول الزمان ، فقد أصلح منها بعض سقفها ، وأعيد بساطه لجدته ورد لما كان عليه من حسن عمله وجودته ، وموه منه ما تقدم تموييه بالذهب ، فرجع له حسنه بعد أن تلاشى وذهب ، وما رقمت به جدران هذا المحل من الجبص والزليج ، ما زال على رونقه وحسن عمله المنتخب البهيج ، وصعدنا في درج منها لأعلاها ، فألفينا به صالات متعددة غربت شمسها ، وأفل بدرها وصارت بلاقعا ، وذوى غصنها بعد أن كان يانعا ، وثوى الكفر في أرجائها ، ونعق غراب البين في أنحائها .

محا محاسنها طاغ أتيح لها

ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا

وقد طالما وطئتها أقدام ذوى الاقدام ، من المجاهدين وأئمة الاسلام ، وعقدت بأبوابها رايات لقتال الملحدين ، وتليت فيها آيات الظفر بأعداء الدين .

وقد انفصلنا عن هذا القصر ، الذى كان غرة فى جبين العصر ، ونحن نعتبر بما آل أمره اليه ، ونود تطهيره من دنس المشركين ورجوعه لما كان عليه .

ثم توجهنا منه لدار كبرى كانت لبعض كبرائهم وهى الآن ملك لزوج سلطانتهم التى كانت ملكة عليهم قبل ولدها الذى قدمنا ذكر وفاته ، وقد كنا رأيناها هى وبناتها بمدريد وعزيناها فيه ، وهذه الدار من أحسن الدور عندهم وأجملها ، وأرفع الاماكن وأفضلها ، وليس بها أحد يسكنها وانما يتعاهدها خدمتها المكلفون بتعاهدها وصيانتها، اشتملت على عدة أماكن وصالات، كل واحدة تفضى الى مجاورتها ، محتوية على فرشها وأسرتها

ومرائيها وشلياتها وأثاثها ، التي يحتاجون اليها ، ويتوقفون وقت السكنى فيها عليها ، وهى تفضى الى مباح دائر بها ، متصل بسورها ترى منه أكثر البلاد وعرصاتها (IO4) وطرقها وجناتها، ويرى منه الوادى المتبحر الذى تسافر فيه المراكب، ويعد سفر (البابورات) فيه من العجائب ، وقد رأينا من هذا المحل (بابورا) مارا فيه الى أن وصل محل الترسية منه وأرسى لأن بطرف البلد محل المرسى ، ورأينا فيه عددا من المراكب ، يستحسن السفر فيها المراكب ، وذكر لنا أن أم السلطان وزوجها ياتيان لتلك الدار فيسكنان فيها أيام اختيارهما لسكناهما ، ثم ينتقلان لمحل آخر غيرها ، وأنهم أخبروا أنهما بنية الاستيطان فيها دواما ، ولما استوعبنا أماكنها خرجنا لروض بجانبها محتو على أشجار رائقة ، ومياه دافقة ، وصهريج ماء متسع جدا جدد لنا حزنا على فقد الاسلام من تلك الاماكن ووجدنا ، فيه من أنواع السمك ما زاده ابتهاجا وسناء ، وتنطبع فى مائه أشكال الاشجار المتصلة به فتزيده نضارة وبهاء ، وحيث كنا ببعض طرقه القريبة منه ، أمر المكلف به أن يرسل ماء تلك الطريق فأرسله فصار يخرج من بين الزليج المفروش فى الطريق، ويرتفع للأعلى قدر قامتين مستقيما ومنحرفا وينزل كالمطر الوابل فيسقى منه ما بجانبى تلك الطريق ، وما سقط منه فيها خرج للجانبين كذلك ، وبأطراف هذا الروض أشجار ليم ملتصقة بالجدران متصلة بها كأن أصولها مغروزة فيها وأغصانها بارزة منها ، وقد زاده ذلك رونقا وبهاء واكتسب به جمالا وسناء ، ثم خرجنا من يابه

(IO4) العرصة فى العرف المغربى هى الحديقة .

وتوجهنا لجنان فى بسىط الارض ممتد طولاً وعرضاً محتو على أشجار بهية ، وطرق مستقيمة مستوية ، فلم نزل نمشى فيه على أقدامنا حتى كلت الاقدام ، وتمنينا الجلوس للاستراحة ولم يستحسن فى ذلك المقام ، ووصلنا لمحل فيه بركة ماء ليست محفوفة ببناء ، وهى مستطيلة كأنها تستمد من واد ، أو يجتمع فيها من غيرها مواد ، وبجانبها قبة بناء ذكروا أن بنات كبرائهم يأتين لهذا الجنان للفسحة فيه ، ويغتسلن فى ذلك المحل ، والقبة محل استراحتهن ، وموضع وضع ثيابهن ، ثم توجهنا لمحل آخر من الجنان فيه بناء لهم ، ولم نر فيه بناء غير ما ذكرناه ولا متنزها الا ما شرحناه ، ووصلنا لباب غير الذى دخلنا منه فوجدنا الاكداش التى نركب فيها بانتظارنا فركبناها وحمدنا الله على استراحتنا من مشقة السفر فى ذلك الجنان من غير طائل ، ومع كبره وحسن منظره فمطلق جناتنا أشهى وأحلى ، وأرفع محاسن وشكلا ، منتزهاتنا مرتفعة ، وغلالها متنوعة ، وماؤها العذب الزلال جار تحت تلك الظلال ، وسندس ورقها بالغلال مرقوم ، كأنه سماء تحلت بنجوم ، أو مصابيح مسرجة فى ليل بهيم ، تنفى الهموم وتشفى السقيم ، وقاها الله من رجس الكافرين وذنسهم وحماها ، حتى لا يطرق طارق سوء حماها .

زيارة معسكر اشبيلية

ثم توجهنا لمحل عسكرهم ، فوجدناه محلا متسعا مربع الشكل ، فى أسفله أماكن منها محل جلوس كبرائه ومحل الطبيب وفيه ما يحتاج اليه ويتوقف عليه من الآلات الطبية ، وأنواع الادوية ، ومنها محل طبخ طعامه المعد فى سائر ايامه

ومنها محل غسل ثيابه وما تطبخ فيه لاستيعاب ازالة وسخها ،
وما تمكن منها من درنها ، ومنها محل الحمام وآلات حمامته ،
الدالة على خسته مع نظافته ، ومنها محل اغتسال العسكر نفسه
من أنابيب ينصب الماء منها على رأسه ، وحيث دخلنا لقشلته
وجدنا طائفتين من العسكر كل طائفة منها على حدثها مختصة
بجهتها متشوفين لاقبالنا عليهم ، ومنتظرين لتوجه وجهتنا
اليهم ، فرفع الجميع أسلحتهم مسلمين علينا ، ووضع كبرأؤهم
سيوفهم تعظيما لجانب سيدنا ، ثم شرع كبرأؤهم فى تحريضهم
الى ان فرغوا من عملهم ، والموسيقى تترنم بلغتهم بتلاحين
أعجميتهم ، وأمرؤهم بالانصراف ، فتداخل الفريقان بين ذاهب
وآت من غير اختلاف ، وجميع ذلك مثل ما يفعله عسكر سيدنا
لا فرق فيه بينهم وبيننا وانفصل كل فريق منهم عن الآخر
لناحيته ، وتوجه كل منهم الى وجهته ، ثم سعدنا لأعلا القشلة ،
فوجدنا فيها أماكن مستطيلة جدا هى المحال التى ينام فيها
العسكر ولكل واحد منهم فيها سرير من خشب ، قدر ما يحمله ،
وفيه غطاءؤه ووطاؤه وبأعلى الرأس منه رقم عدده الذى يكون
فيه بالغبارى (IO5) ، ومحل جعل ملبوسه ، فلا يعدو
أحد منه محله المرقوم عدده فيه ، وقد خرجنا من
هذا المحل وتوجهنا لمحل الطبخية ولما وصلنا اليه
تلقونا بأجمعهم خارج محلهم صفوفًا ، وبأيديهم
سكاكين قصار فتلقانا كبيرهم ورحب بنا ثم أدخلنا بين صفوفهم
الى أن خرقنا جميعها مع كثرتهم ووصلنا لباب محلهم فوجدنا

(IO5) أى أرقام الغبار ويعنون بها الأرقام العربية المغربية المستعملة
بالمغرب وأوربا ، لا الأرقام الهندية المستعملة بالأقطار الشرقية .

بجانبه عددا من المدافع وكراريتها التي تتصل بها ، وتحمل ما تتوقف عليه من بارود ونحوه عليها، ودخلنا المحل، فتوجه بنا لمحل خيلهم ولمحل البغال المعدة لجر المدافع وآلاتها ووجدنا الخيل مناسبة ، والبغال فى غاية الجودة ووقت دخولنا لمعاينتها تفرقت صفوف الطبقية ثم بعد الطواف على الخيل والبغال ومعاينتها أمر كبيرهم باخراجها وضم المدافع اليها وبركوب الخيل معها وجرها على الكيفية التي يستعملونها فى حروبهم ، وطلب منا أن نركب فى الاكداش التي وردنا فيها عليهم، ومنتظرهم فيها لرؤيا عملهم فركبناها منتظرين وطال انتظارنا ، ثم انهم أخرجوا اثنى عشر مدفعا على نحو ما كانت تمر بنا مدافعهم بمدير ، كل مدفع منها يجره ستة بغال ، ومعه طائفة من الخيالة تقرب من خمسة وعشرين فارساً صفوفاً يقتفون أثره كل أربعة من الخيل يتبعها أربعة ، وهكذا ، والى جانبهم قائد منهم ، ومع كل مدفع أنفار نحو الثمانية بعضهم على ظهر المدفع وبعضهم على كرايطه والبعض على البغال وساروا على ترتيبهم على طريق بعيدة منا فى بسيط من الارض حتى وصلوا آخرها ، ثم التفتوا وجاءوا على الطريق التي نحن وقوف بجانبها ، الى أن مروا بين أيدينا عن آخرهم ، وأين ذلك من ترتيبنا العجيب الذى لا يزدريه الا خائن فى دينه مريب ، فانك ترى خيولنا العربية متى أخرجت من أماكنها وبرزت عن مكانها واصطفت صفوفها ، وصارت ببسيط الارض وقوفا ، عليها فرسان لا يدرك شأوهم فى الفروسية ، رجال ليس منهم الا من يختار لنفسه الظفر أو المنية ، ما رأيهم من وصف بالاقدام الا

انفض عرقا ، وفقد عقله فرقا أو جبان الا خر لوقته صريعا ، أو
ولى منقلبا على وجهه سريعا ، ذوو نفوس أبيية ، وقلوب على
اكتساب المعالي منطوية ، ان زحفوا لمواطن الحروب ، لا يعوزهم
شئ عن الظفر بالمطلوب ، أو برزوا لملاقاة العساكر ، لا تجد
منهم الا من هو بقرنه ظافر ، ولعدوه قاهر ، او ركبوا ارهبوا ،
او قاتلوا غلبوا ، اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون .

ومن تكن برسول الله نصرته
ان تلقه الأسد في آجامها تجم
من يعتصم بك يا خير الوري شرفا
الله حافظه من كل منتقم

زيارة مصنع المدافع

ولما تم عملهم، انفصلنا عنهم، وتوجهنا لـ (فبريكة) خدمة
المدافع وما تتوقف عليه من الكور والقرطوس (106) للمكاحل (107)
وغير ذلك، وحيث وصلناها لقينا المكلف بها بالترحيب وادخلنا
اليها فاذا الطرق الخارجة عنها ، المتصلة بها ،
المفضية منها الى الخزائن التي بجانبها والى الباب الاخير
منها ، كلها سكك الحديد تمر عليها الكروصات الحاملة
للمدافع او لاقامتها مثل صناديق الكور أو صناديق
القرطوس او غيرهما بعد انقضاء عمل (الفبريكة) منها، وتحمل
اليها ما ياتي من الاقامة لها، كالنحاس والخفيف (108) والمدافع التي

(106) Cartouche وينطق به المغاربة أيضا قرطاس .

(107) ج مكحلة : البندقية .

(108) الرصاص في عرف أهل المغرب من باب تسمية الشئ بنقيضه
كالمفلس للمعدم ، والبصير للأعمى والمفازة للمتاهة .

هى من العمل القديم لتفرغ على كيفية العمل الجديد ، لان جميع الدول صاروا يجعلون عمارة المدافع من مؤخرها ولما دخلناها وجدناها مفترقة على عدة بلاطات ، منها ما تستعمل فيه مدافع النحاس ، وقد وجدنا هنالك بعض المدافع اخرجت من قالبها وما زالت كذلك ، وبعضها مجعولة فى المخرطة والمدفع يدور فيها كدوران الشئ الخفيف والذي يباشر خرطه مقابل للآلة التى تخرط المدفع وتأخذ منه وهو ينظر اليها وكلما أخذت من جرم المدفع مقدار حرف ريال فى طول شبر يرد آلة الخرط فتجدد خرط ذلك المحل الذى مرت عليه أولا ، وهكذا حتى يستوى مع الذى قبله ، ويصيرا معاً شيئاً واحداً ، ثم ينتقل للموضع الذى يليه وهكذا حتى يكمل ، وأما يدا المدفع فقد جعلوا لهما آلة أخرى تمر بهما فتخرطهما لأن المدفع يمر بها كالمتحرك فى خرط المدفع هو نفسه ، والمتحرك فى خرط يديه الآلة ، ورأينا مدفعا أرادوا رفعه من الارض ليوضع فى المخرطة فجعلوا فى طرف منه كمنة ، وهى طوال (109) فى غاية الغلظ من القنب ، ربما يكون من أسلاك الحديد لانى لم أتنبه وقتئذ للبحث فيه من أى شئ هو ، أسفله ربع دائرة وقد جمع طرفاه من أعلاه ، وألصق بسلسلة حديد عظيمة مسدولة من أعلى ذلك المحل ، وفى طرف المدفع الآخر مثل ذلك ، وطرفا السلسلتين من أعلاههما يجذبان بالآلة ، والمدفع يرتفع عن الارض وحده شيئاً فشيئاً حتى يستوى مع المحل الذى أريد جعله فيه ليخرط أو لينقل من محل

خرط ظاهره الى محل خرط باطنه وتصفيته أو لمحل تشريطه أو لتوشيك (IIIO) مؤخره أو لعصره في معصرته، حتى لا يكون فيه تشقيق ولا ثقب ان خرج فيه شيء من ذلك حين أفرغ في قالبه ، ثم تمر به تلك السلاسل لاحد هذه المحال ولا يحتاج الى عظيم كلفة في ذلك لان قوة (الفابريكا) هي التي تحمله وتنقله من محل لآخر ، وحين يكمل العمل يرفع على كريطة (III) صغيرة ويجر في طريق الحديد فيوضع في خزينه ومتى اجتمع منه عدد يوجه به اما للمراكب الحربية واما للمدن البحرية في (البابور) في الوادى المتبحر ، الذى هو بجانب المدينة قريب من هذه (الفابريكا) ،

ودخلنا لمحل آخر منها فوجدنا به آلات متعددة يخدم فيها قرطوس المكاحل يقطع أولا في بعضها قطع من الصفير كالدنانير ، ثم تنقل تلك القطع لآخر فتقص وتقعر، ثم للثالث فتجوف ، ثم للرابع فتصير كالحلقة (II2) ثم لغيره فتطول وهكذا حتى تصير كقدر الاصبع طولا، وتنقل لآخر فيقطع منها ما زاد على القدر المحتاج اليه ، ولغيره فتثقب من الاسفل في محل جعل (سبيرتو) ثم تنقل لمحل آخر فيجعل البارود والخفيف فيها ، وكل آلة من هذه الآلات يقابلها رجل وصبى ، فالصبى يناول العدد من القطع المذكورة التى تدخل لتلك الآلة ، والرجل يضعها في محل بين يديه من الآلة

(IIIO) الوشك في اللغة العامية المغربية هو اللولب ، والتوشيك هو وضع اللولب في ثقبها .

(III) عربة والكلمة اسبانية .

(II2) القمع (بكسر القاف) في عرف المغاربة .

صفوفا كل قطعة وراءها أخرى ، وتلك القطع تنزل واحدة بعد أخرى في الآلة فبمجرد نزولها يقع عليها الذكر وتخرج من أسفل الآلة وتنزل الأخرى في محلها بقدر ما يعدها الإنسان .

ودخلنا لمحل آخر منها فوجدنا فيه أحواضا ممتلئة طينا لجعل قوالب المدافع وغيرها ، ووجدنا بعض قوالبه مصنوعة وفيه محل مغروزة في أرضه قوالب متعددة لعمل الكور ، وفرن وجدنا الى جانبه رجلين بينهما ظرف حاملين له بعضى والفرن يخرج من أنبوب فيه ما يستعمل منه الكور من نحاس وما يضاف اليه مذاًباً كالماء ينصب منه فيقع في الظرف الذى بيد الرجلين حتى يمتلئ ثم يخلفهما آخران مثلهما ويتوجه الاولان لمحل قوالب الكور فيفرغانه في تلك القوالب ونحن نرى ذلك ، وكلما امتلأ أحدهما انتقل عنه لغيره وهكذا ، ووجدنا بالقرب منه فرنا آخر وبجانبه (بارات) أى قطع الخفيف ورجل يستخرج من آلة بجانبه من قضب الخفيف نحو الاثنى عشر فى دفعة واحدة كأنه يجذب طوالات من القنب ، وييده ما يقيه من حرها ، وهى مثل قضب القزدير التى يجلبها التجار وأغلظ منها ، وفى هذا المحل عدة أناس يخدمون بأيديهم فى الكور الذى أفرغ وأخرج من قوالبه ، وما هو خارج منه عن شكله قطعوه ، وان وجدوا فيه ثقباً فى غير محله أغلقوه ، والمحل الذى يدخل منه البارود لداخله ويكون فيه (سبيريتو) هياؤه لذلك ، ثم مررنا على خزائن فيها صناديق متعددة بعضها فوق بعض ذكرنا لنا أنها خزائن ادخروا فيها ما كمل العمل فيه من القرطوس يعنون عمائر المكاحل ، وان

خزينين منهما فيهما عشرون مليوناً منه ، وثالثها فيه خمسة ملايين ، وهم جادون في خدمته حسبما قدمنا الاعلان بذلك في (فابريكته) .

ودخلنا لبيت صغير خارج عن آلة (الفابريكة) فيه آلة يتوصل بها لمعرفة قوة البارود وجودته أو عدمها تكلم المكلف به في شبه طوال مجوف مع غيره في غير ذلك المحل الذي نحن فيه بعد أن وضع شبه مسطرة قائمة في ثقب بجانبه ، فسمعنا عمارة بارود أخرجت في غير المحل الذي نحن فيه ، ورأينا شبه المسطرة التي بين يديه ارتفع وسقط عن محله فذكر لنا أنهم يختبرون بذلك ما ذكرناه من قوة البارود وجودته ، وقدر المسافة التي يتوصل اليها الى غير ذلك من الامور التي تتعين معرفتها، والمستنبطات التي لم يتوصل الاقدمون اليها فما أدرك من أدرك شيئاً من ذلك الا بالتمرن والتجربة ، أو بالتعلم مما استنبطه غيره وجربه .

وهذه الدولة وان اقتفت أثر غيرها في ذلك فانها لم تباع بعض البعض مما استنبطوه ، ولا علمت من صناعاتهم مثل ما صنعوه ، ولكنها لم تهمل ذلك اهمالاً كلياً ، ولا جعلته وراءها ظهرياً ، بل جدت في ادراكه فأدركت ما تيسر من ذلك ، وهم جادون في ما سلكه غيرهم من تلك المسالك وعقول أهل مغربنا أكثر منهم حدة، وفطنتهم بلغت منتهى الأمر وحده ، فما توجه أحد منهم لناحية ورأى من الصنائع ما توجه اليه الا أدركه في أقرب مدة .

ومن اعتناء سيدنا أيده الله بأمور الجهاد، ورغبته فيما يعود نفعه على البلاد والعباد صار يوجه (II3) من أهل كل حرفة من الحرف التي هي آلة للجهاد من يستقصى معرفتها، ويعلم صفتها وكيفيةها، حتى يستغنى به فيها عن سواه من الأجانب، ويدرك ما يكون به كمال الاستعداد من المآرب، وصار أيده الله يوجه على (الفابريكات) التي يستخدم بها ذلك، وقد ورد منها ما ورد، ورجع من وجهته بعض من توجه لمعرفة، والاطلاع على كيفية وخدمتها، عارفا بجملتها، وجميعهم بصدد الشروع في عمل ما عمله وبذل مجهود في ما أتقنه من ذلك وأحكمه، وهي أمور تدل على ما وراءها وتخبر بمشيئة الله عما بعدها، وغايات الأمور تظهر في بداياتها، ونجاح أعمال النفوس مرتبط بنياتها، كمل الله مراد سيدنا وأعلى به منار الدين، وأثابه بما أثاب به الخلفاء الراشدين والائمة المهتدين.

الرجوع الى الوطن

ولما انفصلنا عن هذه الاماكن كلها، ورجعنا لمحل نزولنا واسترحنا من تعبها ونصبها، بتنا على أهبة السفر لقاصص الذي اليه منتهى سفرنا في بلادهم، وهو أول محل حللناه منها في ابتداء وجهتنا اليهم، فركبنا من الغد في (بابور) البر اليه، وقد تقدم ذكره مع ما ينبغى التنبيه عليه، نعم لقينا فيه غير الحاكم الاول الذي لقينا فيه أولا، وأحسن في الادب والبرور وأظهر غاية البشاشة والفرح بمقدمنا والسرور، وتوجه معنا

(II3) ظ عن البعثات التي وجهها السلطان مولاي الحسن الى اوربا بقصد التعلم ص 148 من الجزء الثاني من كتاب (العز والصولة في معالم نظم الدولة) تأليف النقيب عبد الرحمان بن زيدان الذي نشرناه في العام الماضي.

للمحل الذى عين أول مرة لنزولنا وقام المكلف به
بضيافتنا واکرامنا ، ووجدنا (الفركاطة) التى كانت
حملتنا أولا فى انتظارنا ، فركبنا فيها متوجهين لشجر طنجة
المحرس بالله ، ووصلناه بسلامة فى حفظ الله ، وكان وصولنا
اليه بعد الظهر من يوم الاربعاء 23 من ربيع الاول 1303 ، فتلقانا
أهله حامدين الله على سلامتنا ومهنئين بأوبتنا لبلاطنا ونحن فى
غاية السرور بقضاء الاغراض والمآرب ، ونجاح ما
حملناه من المطالب ، وقد اشتد سرورنا بقرب
مشاهدة شريف محيا سيدنا ، وما لبثنا بشجر طنجة الا قدر ما
استرحنا وتيسير ما نحتاج اليه ونتوقف عليه لسفرنا ، ثم
توجهنا للحضرة الشريفة فى ظلال العافية آمين ، ولمشاهدة
طلعة سيدنا السعيدة السنية الحسنية فرحين ، فحصلت
بحمد الله المشاهدة وهى أعظم منقبة لمن رأى محياه السعيد
وشاهده وتلذذنا بلذيد خطابه، وتشرفنا بخدمة شريف أعتابه ،
وكان تمام الامر على أقصى مراده ، وما عوده المولى جل جلاله من
السعادة فى اصداره وايراده ، أبقاه الله تعالى سديدا آراؤه ،
ناجحة أعماله ، ميسرة أغراضه ، من فضل الله تعالى متممة آماله ،
ولا زالت مقاصده للاسلام وأهله على مرضاة الله تعالى جارية ،
وعزائمه على نصرة الملة الحنيفية متبارية .

هذا ، وقد ألعنا فى هذا التقييد العجيب ببعض ما شاهدناه
من الاعاجيب ، واقتصرنا فيه على ما لا بأس بذكره للعلم به ،
ومعرفة جملته وتفصيله قصد المزيد للاستعداد بأفضل منه
والسعى فى تحصيله ، والا فالمرور من اغتر بزخرفهم ، واعتقد
صدق محبتهم ونصيحتهم ، ولنختم بما أورده فى نفح الطيب

وفيه ما يشهد لذلك ويستحسن ايراده ويتعين اعتقاده ، ناقلا
له عن الكاتب الوزير أبى يحيى ابن عاصم (II4) رحمه الله تعالى فى
كتابه (جنة الرضى فى التسليم لما قدره الله وقضى) قال :

ومن استقرأ التواريخ المنصوصة، واخبارالملوك المقصوصة،
علم أن النصارى دمرهم الله تعالى لم يدركوا فى المسلمين ثارا ،
ولم يدحضوا عن أنفسهم عارا ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل
وديارا ، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصارا ، الا بعد
تمكينهم لاسباب الخلاف ، واجتهادهم فى وقوع الافتراق بين
المسلمين والاختلاف ، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك
الجزيرة ، وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حماتها فى الفتن
المبيرة، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة،
والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب الى الله مزدلفة ، فالحرب

(II4) ابو يحيى محمد بن عاصم القيسى الغرناطى الأندلسى قاضى الجماعة
بغرناطة وخاتمة رؤساء الأندلس ، كاتب شاعر ، ووزير رئيس ، كان ينعت
بابن الخطيب الثانى لبلاغته وعلو كعبه فى صناعتى الشعر والنثر . ولى قضاء
غرناطة عام 838 وله كتب كثيرة فى مختلف الفنون والعلوم منها شرحه العجيب
على تحفة والده ، وكتاب (الروض الاريض) الذى ذيل به احاطة ابن الخطيب .
اما كتابه (جنة الرضا ، فى التسليم لما قدر الله وقضى) فهو كتاب نفيس يفيض
أدباً ودينا وفلسفة ، ندب فيه بلاد الاندلس لما أوشكت شمس الاسلام والعروبة
ان تأفل فيها وحرك عزائم المسلمين لانقاذها . وقد كان هذا الأثر العلمى العظيم
يعد فى حكم المفقود . ولم يكن يعرف منه الا الفقرات البليغة المؤسسية التى
نقلها منه ابو العباس المقرئ فى أزهار الرياض وقد كان اطلع عليه بخزانة
الجامع الأعظم بتلمسان . ولكن من بواعث مسرتى أن أرف الى العلماء والادباء
والمؤرخين وجوده . فقد عثرت على أوراقه مبعثرة بالخزانة السلطانية بفاس
فجمعتها ورتبتها وسفرتها . وهو الآن محفوظ بخزانة القصر الملكى بالرباط
تحت عدد 2648 .

اذ ذاك سجال ، والله تعالى فى اقامة الجهاد فى سبيله
رجال ، وللممانعة فى غرض المدافعة ميدان رحب
ومجال ، وروية وارتجال .

الى أن قال :

وتناولت الايام ما بين مهادنة ومقاطعة، ومضاربة ومقارعة،
ومنازلة ومنازعة، وموافقة وممانعة، ومحاربة وموادعة، ولا أمل
للتاغية الا فى التمرس بالاسلام والمسلمين، وأعمال الحيلة على
المومنين ، واضمار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة
للمجاهدين ، وهو يظهر أنه ساع للوطن فى العاقبة الحسنى ،
وأنة منطو لاهله على المقصد الأسنا ، وأنه مهتم بمراعاة أمورهم،
وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم ، وهو يسر حسوا فى
ارتغائه ويعمل الحيلة فى التماس هلك الوطن وابتغائه ، فتباً
لعقول تقبل مثل هذا المحال ، وتصديق هذا الكذب بوجه أو
بحال ، وليت المغرور الذى يقبل هذا لو فكر فى نفسه ، وعرض
هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات عقله وتجريبات
حدسه ، وقاس عدوه الذى لا ترجى مودته على أبناء جنسه ،
فأنا أناشده الله هل بات قط بمصالح النصارى وسلطانهم مهتماً،
وأصبح من خطب طرقهم مغتماً ، ونظر لهم نظر المفكر فى العاقبة
الحسنة ، أو قصد لهم قصد المدبر فى المعيشة المستحسنة ، أو
خطر على قلبه أن يحفظ فى سبيل القرية أربابهم وصلبانهم أو
عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أحبارهم ورهبانهم ،

فان لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث ، ولم يشرب قلبه حب
التثليث ، ويكون صادق اللهجة ، منصفاً عند قيام الحجة ،
فسيعترف ان ذلك لم يخطر له قط على خاطر ولا مر له ببال، وان
عكس ذلك هو الذى كان به ذا اغتباط وبفعله ذا اهتبال ، وان
نسب لذلك المعنى فهو أثقل عليه من الجبال، وأشد على قلبه من
وقع النبال : هذا وعقده التوحيد ، وصلاته التحميد ، وملته
الغراء ، وشريعته البيضاء ، ودينه الحنيف القويم ونبيه الرؤوف
الرحيم ، وكتابه القرآن الكريم ، ومطلوبه بالهداية الى الصراط
المستقيم ، فكيف نعتقد هذه المزية الكبرى، والمنقبة الشهري ،
لمنعقه التثليث، ودينه المليث (II5) ومعبوده الصليب، وتسميته
التصليب ، وملته المنسوخة ، وقضيته المفسوخة ، وختانه
التغطيس ، وغافر ذنبه القسيس ، وربّه عيسى المسيح ، ورأيه
ليس بالبين ولا بالصحيح ، وأن ذلك الرب قد ضرج بالدماء ،
وسقى الخل عوض الماء، وأن اليهود قد قتلته مصلوباً ، وأدركته
مطلوباً وقهرته مغلوباً ، وأنه جزع من الموت وخاف ، الى سوى
ذلك مما يناسب هذه الاقاويل السخاف، فكيف يرجى من هؤلاء
الكفرة من الخير مثقال الذرة ، أو يطمع منهم فى جلب المنفعة أو
دفع المضرة ؟ اللهم احفظ علينا العقل والدين، واسلك بنا سبيل

(II5) مليث : مختلط أمره ، يقال رأس مليث اذا اختلط شعره الابيض
بالاسود .

المهتدين ، واغفر لنا فانك خير الغافرين ، ولا حول ولا قوة الا
بالله العلي العظيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم تسليماً كثيراً الى يوم الدين ، والحمد لله رب
العالمين (II6) .

انتهى والحمد لله اولا وآخرا باطناً وظاهراً .

ملحقات

ص 12

نص الرسالة الملكية التي اعتمد بها الحاج المعطى بن الكبير
سفيراً للمغرب بفرنسا عام 1306 .

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

من عبد الله المتوكل على الله المفوض اليه أمره فى سره
ونجواه ، أمير المومنين ابن أمير المومنين 7 مرات وهو :

الطابع الشريف الكبير

(بداخله : الحسن بن محمد بن عبد الرحمن الله وليه ومولاه)

أبد الله سعوده ، وأنجز له من كل خير وعوده ،
الى المحب السامى الرتب ، الموقر المنتخب ، الملحوظ
بملاحح الاحترام ، والأثرة والاكرام ، الموصوف بين الرؤساء
العظام بصميم الثناء ، والسياسة والذكاء ، كبير الجمهوريّة
بالدولة الفرنسوية الفخيمة البهية ، الرئيس المعظم ، « سادى
كارنوا » ، اما بعد حمد الله الذى لا اله الا هو العلي العظيم ، فلا
زائد على المعهود من المحبة ، والمودة والصحة الا الاعلام بما
اقتضاه جميل المعاملة ، وجيل المجاملة ، من توجيه خديمتنا

الأرضى الأنصح ، الأنجد الأصلح ، القائد المعطى بن عبد الكبير
المزامزى سفيراً اليكم ، مؤدياً بحول الله ما يكون ناجحاً لديكم ،
بعد ان انتخبناه من سليل الجماهير ، خدام اعتابنا الشريفة
المشاهير ، الذين لهم القدم الراسخ فيها خلفاً عن سلف ، ومن
بيوتات المجد التى ليس فيها مختلف ، وحملناه ما يؤديه اليكم
من حسن المجازاة ، والثناء والمكافاة ، على ما ظهر من جنابكم
الأفخم من حسن الموالاتة ، التى تأكدت بتوجيه سفيركم لحضرتنا
الشريفة ، المنسطر الذكى « بطنوتر » برسم تأكيد المحبة ،
وزيادة المودة ، والاعراب عما فى النية ، وما تضمنته الطوية ،
مما حرك نشاطاً ، وسروراً وانبساطاً ، وعززناه بكاتبنا الأرضى
الأنجد الأنصح الأرشد الطالب أحمد الكردودى ، وبخديمننا
الأرضى الأنجد الأصلح الأرشد الأمين الحاج محمد بن المدنى
بنيس ، ونحن على يقين من أنكم ستقابلون الجميع بمزيد المبرة
والقبول ، وتبلغوهم من الاعتناء غاية المامول ، وتصدقون
السفير المذكور فيما حملناه ، وفى كل ما يذكره لكم عن جنابنا
العالى بالله ، من جميل الاعتقاد ، وكامل الوداد ، وما يقوى أسباب
الاتصال ، ويحصل فوائد الاحتفال والاهتبال ، مما يزيد بحول
الله فى الخير بين الايالتين ، وتتأكد به المحبة بين الدولتين ،
فان قصدنا ومناط معتقدنا هو ربط أسباب الخير بين الدول
العظام ، سيما من هو مثلكم من الجوار ، الذين عليهم فى المحبة
المعول ، وادخار صحبتهم من الأهم الأول ، ودمتم مخصصين
بالاعتناء التام ، فى الافتتاح والاختتام .

وحرر فى 27 من ذى القعدة عام 1306

ولما كان ذهاب السفارة المذكورة الى فرنسا عن طريق
الجزائر كتب السلطان مولاي الحسن الكتاب التالي الى الوالي
الفرنسي العام بالجزائر :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

من عبد الله المتوكل على الله المفوض اليه امره في سره
ونجواه ، أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين 7 مرات وهو :

الطابع الشريف الكبير

(بداخله : الحسن بن محمد بن عبد الرحمن الله وليه ومولاه)

أبد الله سعوده ، وأنجز له من كل خير وعوده ،
الى المحب الملحوظ بعين الاحترام والوقار ، والاعتناء والاعتبار ،
رئيس العمالة الجزائرية الكبرى . ترمان المنعوث بالنباهة
والالمعية ، اما بعد فقد اقتضى حق الجوار والموالاة ، والمحبة
والمصافاة ، اعلامكم باننا عينا خديمنا الأرضي الأنصح القائد
المعطي بن عبد الكبير المزامزي سفيرا لدوتكم المحبة ، بقصد
تجديد المحبة وتأكيد المودة بين الدولتين ، وما يزيد في الخير
بين الايالتين ، وعززناه بكاتبنا الأرضي الأنجد الطالب أحمد
الكردودي . وخديمنا الأرضي الأرشد الامين الحاج محمد بن
المدني بنيس ، واقتضى نظرنا الشريف أن يتوجه أولا لديكم ،

ويقرر ما حملناه من ذلك اليكم ، اعتناء بشأن الجوار ، ونظرا
لكونكم فرع دوحة الدولة الفرائصية الباسق ، وانسان عينها
المارق ، وركنا من أعظم أركانها ، وعضوا من أقوى أعضائها ،
بل هي وأنتم ذات واحدة ، ونفس متحدة ، وكلاهما للآخر نعم
الحبيب ، وحبيب الحبيب حبيب ، واننا على يقين من أنكم
تقابلونهم بما يقابل به الأبناء أبنائهم ، وتصدقون لديكم
أخبارهم وأنبياءهم ، بما انطوت عليه الجوانح من خالص المحبة ،
التي توارثها الأخلاف عن الأسلاف ، وبقيتم كما تحبون من
الاحوال والاصاف ، وختم في 12 من ذى الحجة عام 1306 .

ص 13

سفارة الطريس الى البابا ليون الثالث عشر

هذه السفارة هي أولى سفارة من نوعها أوفدها أحد ملوك
المغرب الى أكبر شخصية في العالم الكاثوليكي وسببها أن
الحكومة الاسبانية أوفدت في عام 1305 (1887) سفارة الى المغرب
برئاسة الديبلوماسي الاسباني الوزير المفوض السنيور
ديو سداودو ، وقد اغتنم ترجمان السفارة الراهب الاسباني
الأب خوسي ليرتشوندي فرصة محادثته مع السلطان ، فحدثه
عن المواسم والأعياد التي كان العالم المسيحي يستعد يومئذ
لإقامتها ابتهاجاً بيوبيل قداسة البابا ليون الثالث عشر ، وأقنعه
بارسال سفارة مغربية الى الفاتيكان بهذه المناسبة .

واقتنع السلطان مولاي الحسن الأول بسداد الفكرة
فعين القائد عبد الصادق بن احمد الريفى سفيرا الى البابا وعززه
بكاتبه أحمد الكردودى مؤلف هذه الرحلة وحملهما هدية الى
الموفدين اليه .

وكتب السلطان بهذه المناسبة الرسالة التالية الى نائبه
فى الشؤون الخارجية الحاج محمد بن العربى الطريس يخبره
بعزمه الى ارسال سفارة الى الفاتيكان :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

(الطابع الملكى)

خديمنا الارضى الحاج محمد بن العربى الطريس وفقك
الله وسلام عليك ورحمة الله ، وبعد فقد اقتضى نظرنا الشريف
توجيه خديمنا الارضى القائد عبد الصادق بن احمد الريفى
سفيراً لعند رئيس البابليون برومة بقصد الحضور فى عيدهم
وتهنيتته ببلوغ فقاھته الى خمسين سنة وتجديد المحبة والمودة
التى كانت بين اسلافنا المقدسين وبين الرهبان البابليون
ورؤسائهم، وتعزيزه بكاتبنا الارضى الطالب أحمد الكردودى
وأصحابه بالتحفة المبينة بالتقييد طيه للرئيس المذكور وبكاتبنا
الشريف لهذا الرئيس الواصلة اليك نسخة منه بطيه أيضا ،
كما اقتضى نظرنا الشريف أن يكون توجهه على يد
الصبنيول فى مركبهم ، وأن يرافقه البدرى خوسى
رئيس رهبان الصبنيول وهو الذى يترجم له المكاتيب

الموجهة للباشدور فى هذا القصد ، وقد أمرنا بالكتابة لباشدورهم فى ذلك بما فى النسخة طيه وعليه فتلاق انت والسفير المذكور مع الباشدور وتفاوضا معه فى ذلك ، وحيث توجه دولته المركب والرهيب المذكور يتوجه الخديم والكاتب المذكوران صحبة الرهيب المشار اليه ، وليكن ذلك منكم على وجه السر والكتمان بحيث لا يعلم احد بتوجهه ولا بالمحل الذى توجه له والسلام .

فى 4 ربيع الثانى عام 1305 (117)

وتنفيذاً للأمر الملكى الوارد فى الكتاب المتقدم كتب النائب الطريس الرسالة التالية لسفير اسبانيا بطنجة :

الحمد لله

المحب العاقل الناصح الكبلىر (118) الساعى فى الخير بين الدولتين المحبتين منيسطر (119) دولة الصبنيول الفخيمة المعتبر حسى ديزددوا كستيليو ، بعد مزيد السؤال عن أحوالك ومحبة ان تكون بخير على الدوام ، فلا يخفى عليك ايها المحب ان اسلاف مولانا المنصور بالله المقدسين كان بينهم وبين الرهبان البابليون رؤساء الرهبنة الفرنسيسكانية ما لا مزيد عليه من المحبة والصحبة ، حتى انهم كانوا أعطوهم الحرية واباحة السكنى مع النصارى ، وكانوا يعاملونهم ويعينونهم على

(117) يوافق 20 دجنبر 1887

(118) أى الفارس وهى من النعوت الرفيعة عند الاسبانيين ، والكلمة اسبانية

(119) أى الوزير ، والمراد به الوزير المفوض . والكلمة اسبانية .

أمر دينهم ، ولأجل ذلك اقتضى شريف نظر مولانا نصره الله أن يقتدى بأسلافه الكرام ، ويقتفى أثرهم في معاملتهم بذلك ، وأن يوجه خديمه الارضى الانجد الانصح القائد عبد الصادق بن احمد الريفى سفيرا لعند المحترم ، رئيس أساقفة الملة النصرانية الجالس على كرسى رئيس الحوارية لقضاء الدعاوى الدينية المعظم المفخم البابا ليون الثالث عشر لروما ليحضر فى العيد معه ويهنيه بما من به الله القادر عليه من بلوغ فقاوته الى خمسين سنة ، ويقرر له محبة الجنا ب الشريف كما يوجه له سائر الدول سفراءهم بقصد ذلك ، وأن يعزز السفير المذكور بكتاب حضرته الشريفة الفقيه الارضى الانبل السيد احمد الكردودى وان يصحب معه السفير المذكور الكتاب الشريف الواصلة اليك بطيه نسخة منه والتحفة المبينة بالتقييد الذى بطيه ايضا لرئيس البابا ليون المذكور امارة ودليلا على المحبة والمودة وان يتوجه مع السفير المذكور الكبلير البدرى خوسى لكونه عزيزا عند مولانا نصره الله ورافق غير ما مرة سفراء حضرته الشريفة لدولتكم الفخيمة وان يكون توجيه السفير على يدكم وفى مركبكم لما لكم من المحبة فى جنا ب الشريف ولما يسمعه أعزه الله من محبة رئيس البابا ليون المذكور لسلطانتكم الفخيمة وأمرنى أيده الله بتطبير الاعلام لك بهذا على وجه السر والكتمان لتعلم به دولتك المحبة عاجلا لتيسر المركب لركوب السفير المذكور وتوجه الكبلير البدرى خوسى المشار اليه

لمرافقته وها السفير والكاتب المذكوران يردان عليك بقصد ذلك فكن ايها المحب عند ظن الحضرة الشريفة بك في الوقوف معهما حتى يتوجها ودمت بخير .

وختم في 12 من ربيع الثاني عام 1305 (120)

ثم ظهر للسلطان أن تتوجه السفارة في مركب مغربي لا اسباني ، اما بداعي المحافظة على السمعة الوطنية ، أو تحت تأثير احد الاعتبارات السياسية وكتب في هذا الصدد الرسالة التالية الى النائب الطريس :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

(الطابع الملكي)

خديمتنا الارضى الحاج محمد بن العربى الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد اقتضى نظرنا الشريف ان يركب السفير الخديم عبد الصادق من طنجة سرا فى بابور جانبنا العالى بالله وينزل بالمرسى المسماة سيبيطا ايقيا التى بينها وبين رومة نحو ساعتين وعليه فنأمر ان تعلم باشدور اسبانيا بذلك وان وافق على ركوبه بالبابور المذكور فيركب به والا فبمركبهم كما قدمناه لكم والسلام .

فى 13 ربيع الثاني عام 1305 (121)

(120) يوافق 28 دجنبر 1887

(121) يوافق 29 دجنبر 1887

ولكن هذه الرسالة الملكية لم يكن لها أدنى تأثير على المشروع الاول .

وبينما كان السفير عبد الصادق يستعد للسفر اذ اعتراه مرض عاقه عن القيام بالمأمورية التى كلف بها ، فكلف السلطان النائب الطريس بالسفر الى الفاتيكان بدله ، وجرت بين الخارجية المغربية والجهات المسؤولة بالفاتيكان مخابرات فى هذا الشأن انتهت بتحديد اليوم والساعة التى يستقبل فيها البابا المذكور السفارة المغربية .

وفيما يلي ترجمة رسالة محررة باللغة الايطالية بعث بها الكاردينال امين الدولة م . كارد رامبويلا الى النائب الطريس :

مدينة الفاتيكان فى 23 فبراير 1888

صاحب السعادة الحاج محمد بن العربى الطريس وزير الشؤون الخارجية لجلالة امبراطور المغرب .

ان الموقع عليه وهو الكاردينال أمين الدولة لم يتأخر فى اخبار الأب المقدس بالمهمة الحميدة التى ارتأى جلاله سلطان المغرب ان يعهد بها الى سعادتكم وبرغبتكم فى القيام بها على الوجه الحسن المناسب للنوايا الطيبة لجلالة ملككم المبجل .

وان صاحب القداسة الذى يقدر هذه الالتفاتة حق قدرها والتى شاء صاحب الجلالة أن يخصه بها بمناسبة اليوبيل الكهنوتى ورغب فى أن يقوم مندوبه بالمهمة المنوطة به على أتم وجوه العناية قد قرر أن تجرى مقابلة البعثة الخاصة يوم السبت الذى هو اليوم الخامس والعشرون من الشهر الجارى ، وذلك

على الساعة الثانية عشرة بالتوقيت الشمسي المحلي . وفي الوقت الذي يتفرغ فيه الكاردينال صاحب هذا الكتاب الى القيام بالواجب العاجل الذي هو احاطة سعادتكم علماً بهذا الخبر فهو يرجوكم ان تتفضلوا بقبول عبارات تقديره الاسمى .

الامضاء : م . . كارد . رامبويلا

وفعلا اقتبل البابا ليون الثالث عشر السفارة المغربية يوم 25 فبراير بقاعة « أرازي » من قصر الفاتيكان وتبودلت بينه وبين الطريس خطب بالعربية والايطالية ، وقام الأب ليرتشوندى بدور الترجمان ، وقدم السفير المغرب الى البابا الهدايا التي وجهها اليه السلطان ، كما سلمه رسالة الاعتماد التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

من عبد الله المتوكل على الله المفوض اليه أمره في سره ونجواه ، أمير المومنين ابن أمير المومنين 7 مرات وهو :

(الطابع الملكي)

أبد الله نصره ، وزين بكل خير عصره ، الى المحب المعظم المحترم المفخم رئيس أساقفة الملة النصرانية الجالس على كرسى رئيس الحوارية لقضاء الدعاوى الدينية الذي اشتهر علمه وانتشر البابا ليون الثالث عشر ، اما بعد حمدا لله الذي لا اله الا هو العلي العظيم فمن المعلوم عند الناس والخاص والعام من

الاجناس ان اسلافنا المقدسين ملوك المغرب كان بينهم وبين
الرهبان البابا ليون رؤساء الرهبنة الفرنسيسكانية مزيد المحبة
والمودة والصحبة حتى انهم كانوا اعطوهم الحرية واباحة
السكنى حيث النصرى ، وكانوا يعاملونهم ويعينونهم على أمور
دينهم ، ونحن بحول الله على آثار اسلافنا رحمهم الله فى معاملتهم
بذلك واقتضى نظرنا الشريف اعلامكم ايها المحب بهذا لما ينهى
من محاسنكم وفضلكم الينا ويتلى من شهرة وصفكم بالخير والحق
والعلم لدينا ، وبمزيد محبتكم فى المحبة المفخمة سلطنة دولة
اسبانيا المعظمة وان نعطوكم امارة ودليلا على محبتنا ونوجه
لكم سفيرا من شريف حضرتنا كما يوجه سائر ملوك الدول
سفراءهم لعندكم برومة ليحضروا عيدكم ويهنوا جانبكم بما من
به الله القادر عليكم من بلوغ فقاھتكم الى خمسين سنة ، فاخترنا
لذلك خديمنا الارضى الانجد الانصح القائد عبد الصادق بن احمد
الريفى وعززناه بكاتبنا الارضى الانبل الطالب احمد الكردودى
وعينا لمرافقتهم الكيلير البدرى خوسى لرجونادى كبير الرهبان
الذى هو عزيز عندنا لأنه رافق غير ما مرة سفراءنا للدولة
الصبنيولية ونحن على يقين من أنكم تقابلون سفيرنا المذكور
ومن معه بمثل ما تقابل به مجادتكم سفراء الاجناس المحبين
من الاعتناء والبرور فى الورود والصدور وتصدقونه فيما يذكره
لكم عنا من المحبة والمودة ودمتم فى سرور وهناء ملحوظين بعين
الاعتبار والاعتناء .

وختتم فى 20 من ربيع الثانى عام 1305 .

ومن الوثائق المتعلقة بهذه الرحلة الكتاب الذى بعثه
النائب الطريس من روما الى الامين الحاج محمد الزكارى الذى
كان يقوم مقامه اثناء غيبته بدار النيابة بطنجة :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

محبتنا وأمين سيدنا الاعز الاسعد السيد الحاج محمد
الزكارى، رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره
الله ، وبعد فقد وصلنا كتابك معلما بأنه ورد عليكم من الحضرة
الشريفة كتابان شريفان احدهما لنا والآخر لباشدور الصبنيول
امر مولانا ايده الله ان يدفع له بيده فدفعته له طبق الامر
الشريف ودفعت له الكتاب الشريف الذى هو لنا واكدت عليه
فى وصوله الينا فقد وصل وعملنا بمقتضى ما فيه وها جوابه
للحضرة الشريفة يصلك فوجهه للحضرة المولوية وأخبرت بان
الاحوال بخير لا ما يشوش البال الا ما كان من قونصو المركان
فانه ما زال على حاله ، نطلب الله ان يكفيننا شره وشر كل ذى شر،
وذكرت ان ولدنا أصلحه الله وصل لتطوان صحبة الامة فالحمد
لله على سلامتهما ويسلم عليكم رفقائونا الكاتب وغيره ونحن
جميعا بنية السفر من روما غد التاريخ ان شاء الله ودمتم بخير
وعلى المحبة والسلام .

فى 24 جمادى الثانية عام 1305 (122)

محمد بن العربى الطريس لطف الله به

ص 15

نص الظهير الذى توجه به الكاتب احمد الكردودى لآسفى :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

(الطابع الشريف)

(بداخله : عبد العزيز بن الحسن الله وليه ومولاه)

خليفة خديمنا الأرضى القائد الحمري وفقك الله وسلام
عليك ورحمة الله ، وبعد فقد تقدم أمرنا الشريف للخديم المذكور
اولا باحضار من الى نظره من غرماء تجار النجليز بآسفى
لخدامنا امناء المرسى ثمه الذين كلفوا بمباشرة فصل قضايا
الديون التى عليهم للتجار المذكورين . وطالما جددنا لهم
المكاتيب فى ذلك فلم يظهر منهم أثر مفيد ثم وجهنا كاتبنا
الطالب أحمد الكردودى للوقوف مع الامناء المذكورين على
مباشرة ذلك وأذنا له فى الكتب لكم باستحضار من تأخر حضوره
من الغرماء الى أن أخبر الآن الكاتب المذكور بان مباشرة ذلك
ما زالت متعذرة لعدم احضاركم من الى نظركم من هؤلاء الغرماء
وانكم ما زلتهم لم تدفعوا له ما نايكم وسط العمال الخارج عليهم
فى مؤونته اليومية ، وحيث طال هذا الأمر واستطال ولم يبق
للمهلة فيه محل ولا مجال ، فنأمرك بوصوله اليك أمرا جازما
بالمبادرة لاحضار من يكتب لك عليه الكاتب المذكور من
الغرماء الذين الى نظركم من غير تلو ولا مدافعة ولا غير ذلك

من أنواع الخروج عن الجادة وأن تقوم بدفع ما ينوبكم فى
مؤونة الكاتب المذكور ماضيا واستقبالا على يد الامناء كما تقدم
لكم من غير تسويق ولا مطال والا فلا تجر الملامة الا لنفسك
ولا تسد كوة عهدة ذلك الا برأسك . وقد أعذر من أنذر والسلام
فى 2 ربيع الثانى 1315 .

بعد الفراغ من طبع هذه الرحلة عشر فى خزانة الفقيه
السيد عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المرى على قصيدة
للأديب الكاتب الشاعر السيد الحاج ادريس بن على المالكى
البكرى السنانى هنا بها صاحب هذه الرحلة بعودته من
الأندلس ، وقد رأينا من المفيد الحاقها بالرحلة لعلاقتها بها :

جادت بطيب وصال	وأنعمت باتصال
من بعد بعد وهجر	وفرقة وانفصال
من غير وعد يراعى	أو موعده أو مقال
ولم يكن لى بظن	تأتى بغير سؤال
تلففت بوشاح	من الدجا خوف قال
وأقبلت مثل غصن	تمايلا فى اعتدال
بتنا - وباتت - سليمى	تريد بنت الدوالى
راح قديمة عهد	رقت فكانت كحالى
سقت فساقت سرورا	بمنطق قد حلالى
ونادمت وتغننت	فزلزلت طود ببالى
هذا وقلبى المعنى	فى أجلها فى اشتعال

والعقل - بين ذهول	وحيـرة وضلال
أخال ذاك منامنا	اذ كان شبه خيـان
فيارعى الله ليلا	بتنا به فى احتفال
حتى انتضى الفجر سيفا	وراعه بارتحال
وقد رأيت الثريـا	مالت بذاك المحـال
كأنها عـقـد در	أو شملنا بالكلالى
ذى المجد أحمد من لم	تجد له من مثـال
بر شريف منيف	من خير رهـط وآل
له المريـة ارث	جاءت بعـم وخال
أجداده أهل جاء	هم السـراة المـوالى
كما أبوه وحيـد	سما بأوج الكمال
قد كان فى العلم بحرا	يرعى بأبهى اللئـانى
وفضله ليس يخفى	كالشمس عند الزوال
هذا الذى حاز منه	سرا بغير اختيـال
اذ كان برا مطيعـا	له بصدق الرجـال
فانظر اليه تجـده	معظما وهو غـال
عليه ثوب قبـول	ونظرة وجمـال
ان قال قال صوابـا	ولو بحال ارتجـال
أو خط فى الطرس خطـا	أصاب فى كل حال
جيد الكتابة صدقـا	بدره اليوم حـال
فياله من فقيـه	حوى سنى الخصال
علم ، وحلم ، وحزم	مع رأفة واحتمـال
وبسط وجهه وكف	لاجل بذل النـوال

مولى صفوح عطوف	رضاه سهل المنان
ان جئته فى مـراد	أتاك حسن الفـعان
من صدق نصـح ووعد	صاف من المـطل خـال
أخلاقه الغر فاقـت	ريح الصبا والشمـال
رقت وراقت فكـانت	نسـيم طـيب الغـوال
يا ليت شعـرى فـمـادا	أقول والقـدر عـال
والفضل يعجز قـسا	احصاؤه كالمـحـان
يا سيدا طاب وصفـا	فطاب فيه مقـالى
فاهنا بأوبة عـز	والمنصب المتعـالى
أبقاك ربى عـزىـزا	طول المـدى واللىـالى
وهاكها من محـب	بغيركم لا يـبـانى
محلـه أرض فـاس	وأصلـه من هـلال
لا زلتم فى صـعـود	ونعمـة كالجـمـال
فى حوز أـمن وحـفـط	من شر باغ وقـال
وقدركم فى ارتفـاع	وعزكم متـوال
بجاء خير البرايـا	عين الهدا والكمـال

ولما اطلع عليها المؤلف أجابه بقوله :

يا من سما فى المعالى	معظم القـدر عـالى
شرفتـنى بـمـديـح	يزرى بعقد اللئـالى
رق وراق ورقـى	لعزـة وكـمـال
كمثل روض أريـض	ليس له من مثـال
أو خلق منشى حـلاه	أبو العلاء الهـلالى

فهرس

صحيفة

5	تصدير
9	ترجمة المؤلف
18	مقدمة المؤلف
23	السفر
25	الوصول لطنجة ووصف تحصيناتها
31	ظهور التلفون بطنجة
31	الابحار الى الأندلس
35	الوصول لقادس
36	التزاور
37	مشاهدة بعض حصون قادس
39	السفر الى مدريد
41	الوصول الى مدريد
42	وصف مدريد
43	وفاة ملك الاسبان
46	اول اجتماع بوزير الخارجية الاسبانية
46	زيارة الاسطبلات الملكية
50	زيارة متاحف مدريد
55	حديقة الحيوان
57	استقبال الملكة للسفارة

62	السفر الى قرطبة
67	الذهاب لغرناطة
69	زيارة الحمراء
78	الذهاب لاشبيلية
83	زيارة معسكر اشبيلية
86	زيارة مصنع المدافع
91	الرجوع الى الوطن
97	ملحقات
115	فهرس



تحت الطبع :

عروسة المسائل ، فيما لبني وطاس من الفضائل

للأبي عبد الله
محمد الكرسي